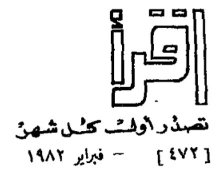

اقرأ
أنيس منصور
لو كنت أيوب
مقالات



تصدر أول كل شهر

[٤٧٢] - فبراير ١٩٨٢

رئيس التحرير **أنيس منصور**

أنيس منصور

لو كنت أيوب

مقالات



دار المعارف

تصميم الغلاف : منى جامع

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

لحظة فرح

وسط أحداث العالم كله نشرت الصحف والمجلات العالمية أخبار وصور زواج الأميرة آن بنت ملكة بريطانيا وزوجها الكابتن فيلبس . وكان الزفاف فى نفس اليوم الذى يصادف مرور ألف سنة على قيام المملكة فى بريطانيا . وحينئذ تساءل العالم كله عن لون الفستان ودبلة الخطوبة ، وأين يكون شهر العسل وعلى حساب من . وكم يتكلف الفستان وأين يعيش العروسان . وهل تذهب العروس مع زوجها الضابط فى أى مكان يذهب إليه ؟ .

وبالأمس نشرت صحيفة (التايمز) حديثًا مع العروسين استغرق تسعين دقيقة . سُئلت العروس إن كانت قد أحبت زوجها . وكان جواب الاثنين : نعم ، ولكن لم يفكر العريس فى الزواج إلا منذ شهور برغم صداقة الاثنين ، ولكن العروس اعترفت بأنه كان معروفًا عنها وهى تلميذة أنها سوف تتزوج فى أقرب وقت . وسئلت العروس إن كانت أمها الملكة قد تدخلت فى اختيار زوجها ، واستنكرت العروس السؤال وقالت : طبعًا لا . . وهل أنا ولد؟

وهى تقصد أن الولد من الممكن أن يكون ملكًا ولذلك يجب أن يتدخل القصر والوزارة والبرلمان فى اختيار الملكة . فليس من حق أى ملك أن يفرض زوجته على الشعب .

وسُئلت العروس من أين أتت بتكاليف الرحلة إلى جزر باربادوس حيث تقضى شهر العسل . فأجابت إن الملكة فى طريقها إلى هذه الجزر فانتهزت هذه الفرصة

وركبت معها هى وعريسها . .

وكان شيء يمكن السؤال عنه ، وكل شيء يجب أن يقال ، ولكن أهم من ذلك كله أن مئات الملايين من الناس عبر المحيطات وعبر الأقمار الصناعية فى كل العالم كانوا ينتظرون الزفاف ورؤية وجه الشابين العروسين السعيدين . إن مئات الألوف قد حجزوا مقاعدهم فى الشوارع قبل الزفاف بأيام ليروا العروسين .

إن العالم كله فى حاجة إلى لحظة سعادة . . إلى رؤية وجه سعيد . إلى مشاهدة حادث سعيد . . إن الهم والغم والكرب العظيم قد سحق العقول وطحن القلوب وأباد الأمل فى كل مكان ، إن الناس يصحون ويمسون على الدمار والخراب . . والظلم واليأس . . قل لى : أين هو الأمل أو الحياة فى هذه الوجوه : جولدا مائير — ومعناها منيرة ، أو أبا إيبان ومعنى اسمه : أبو حجر — أو ديان ومعنى اسمه : القاضى المستبد . إن هذه الوجوه الكئيبة تبعث على اليأس من هذه الحياة ، بل إن سماع هذه الأسماء وذكرها لكابوس بالنهار وعفريت بالليل . .

ولابد أن كل شعب فى الدنيا عنده وجوه ألعن وأبغض من هذه الوجوه وهذه الأسماء . . ولذلك فالعالم كله يتطلع إلى هذا الزفاف . . كأنه قد هبط علينا من عالم آخر . . وفى طريقه إلى عالم لا نعرفه . . أو عالم نسيناه . . أو نتمناه . . إن النظر إلى السعداء راحة — أو عدوى نتمنى أن تنتقل الينا . .

ولذلك فالدنيا كلها أنما أرادت أن تستريح فى ظل عروسين ربط بينهما الحب واستدرجها إلى جنات النعيم فى هذه الحياة . . إنها لحظة لا تنسى عندهما ، ولحظة نسيان للعالم لأن هذه الدنيا مقبرة للأموات وللاحياء أيضا . . إنها فرصة للحالمين أن يقولوا : لو تكون الدنيا هكذا . .

من المستحيل أن تكون كذلك ، ولكن من الممكن أن تكون أحيانا هكذا . . إنها لحظة فى عمق وطول وعرض الأبدية !

السلام : أهم !

العالم كله كان مبهورا بوزير خارجية أمريكا الأسبق هنرى كيسنجر وهو يعرف ذلك . وحريص على أن يكون باهرا أكثر وأن ترتبط المعجزات السياسية باسمه . فهو قادر على اللعب على كل أصابع البيانو ، وقادر على أن يمشى على كل الحبال ، لأنه قادر على التوازن ، التوازن النفسى والتوازن بين كل الاتجاهات المتعارضة . وقد وصفته فى هذا المكان بأنه « خبير لحام » وأنه قادر على أن يقوم بعملية اللحام بين الأطراف مستخدما نار الأوكسجين . .

وقد وصفته مجلة « تايم » الأمريكية بأنه ميكانيكى يصلح السيارات والطائرات وهى تتحرك !

وهو معجب بالوزير النمساوى مترنخ (١٧٧٣ - ١٨٥٩) لأن هذا الوزير النمساوى استطاع أن يحكم الدبلوماسية الأوربية كلها أربعين عامًا . وأنه هو أيضا مثل مترنخ يعتمد على الصداقات الكبيرة . أى فى حاجة إلى كبير يسنده أو يثق فيه تماما . فاذا وثق به انطلق يصنع المعجزات السياسية أى يصنع التمارين الهندسية أو المسائل الجبرية المعقدة ، ثم يتولى هو حلها .

ولكن المشكلة دائما هى : ما فائدة هذه المسائل التى يعقدها ويتفرج على الناس وهم حائرون فى حلها ثم يقوم هو بحلها ؟ إنها براعة نظرية ، تفيده هو ولا تفيد أحدا غيره !

ولكن مترنخ كان يريد أن تتوازن القوى فى أوربا . وكان قادرا على ذلك ،

ومترنخ كان يقول : أنا لا أقوى على فض الخناقات ، أنا أستطيع أن أوجه المعارك فقط !

يجب أن تكون الأشياء واضحة صارخة لكى يتمكن من رؤيتها وتوجيهها إلى الحل المتوازن . وكان لابد أن تشتعل النار يوم ٦ أكتوبر ليصبح كل شىء واضحا فى النار وهنا يتقدم الساحر العجيب كيسنجر ويحل العقد . .

وكان مترنخ يقول عن نفسه : أنا لا أخطئ ولا أظن أننى أخطأت فى تقدير شىء . .

وقد وصفه السياسى الفرنسى تاليران بقوله : إنه كسول جدا . وتافه جدا . ورجل صالونات . .

ووصفه الدوق ولنجتون بأنه : ليس عبقريا ولكنه أحد رجال المجتمع الذى لا يمكنك أن تتجاهله . .

وكان مترنخ يتحدث ست لغات بطلاقة تامة . وكان يرى أن هذه ميزة نادرة فى ذلك العصر . .

ووصفت مجلة « تايم » هنرى كيسنجر بأنه مثل السياسى الفرنسى تاليران وأنه مثل المستشار الألمانى بسمارك . وكان بسمارك : متحررًا فى تشدده ، ومتشددًا فى تحرره . وهذا هو التوازن الصعب . .

وايا كانت عبقرية كيسنجر فى خلق المسائل الهندسية أو الجبرية أو الفلكية الصعبة ثم استعراض قدرته على حلها ، فالمهم أن يكون التغيير مفيدا للسلام العالمى !

نهاية الصين

فى حدائق الحيوانات نجد الطيور والوحوش تتحرك فى أقفاصها هنا وهناك . كأنها لم تقتنع بأنها سجينة فى حدود ثابتة لا أمل فى زحزحتها . . انظر إلى الدب أو الفهد أو الأسد كلها تدور فى أقفاصها ليلا ونهارا . وتفسير ذلك أن هذه الحيوانات فى حالة قلق . وأن هذا القلق يدفعها إلى الحركة الدائرية اليائسة . فهى قد عاشت فى الغابات الواسعة بلا حدود ، وهى قد توارثت الحركة والانطلاق . ولذلك تضيق بالقيود والسجن . فتضعف صحتها . ويضعف نسلها . وبعض هذه الحيوانات تموت حزنا . . أو بعضها لا تكون له صغار . ويصبح من الحوادث النادرة أن نجد بعض الحيوانات قد ولدت فى الأسر – أى فى حدائق الحيوانات !

وبعض الناس مثل هذه الحيوانات أيضا . يولدون فى الأسر . الأرض ضيقة . والبيوت أضيق . والرزق أكثر ضيقا . ويحس هؤلاء الفقراء أنهم مختنقون . وأن هذا الاختناق يدفعهم إلى الانفجار والفجور . إلى الانطلاق . وأكثر الذين عشقوا الدوران فى الأرض وحولها قد كانت حياتهم مثل أقفاص الحيوانات لها أعواد أقسى من الحديد . الفقر أقسى من الحديد . الخوف أقسى من الفقر . اليأس أعنف من الخوف . . ولذلك عندما كبروا انطلقوا دون أن يكون لديهم أية آمال فى العودة إلى أى مكان . .

وفى يدى الآن كتاب عن الرحالة الاسكتلندى لفنجستون . هذا الرجل وجد أن فرصته الوحيدة هى أن ينطلق إلى العالم الواسع . فاختار افريقيا . السوداء

الساحرة المخيفة . وتسلح لفنجستون بالدين وقام يبشر به بين الوثنيين وبين متعددى الأزواج . وفى نفس الوقت يريد أن يكتشف أسرار هذه القارة ومنابع أنهارها ومصادر المياه لعيون هيرودو بطليموس ومركز الكون .

هرب أول الأمر من الغرفة الضيقة التى كان ينام فيها مع سبعة من الإخوة وأبوين وبعض الأقارب فى كثير من الأحيان . ثم هرب من مصنع الغزل الذى يعمل فيه ١٤ ساعة فى اليوم . فإذا جاء الليل حشره إخوته ودفعوه إلى أحد جدران الغرفة يتنفس وأنفه ملتصق بالحائط !

وفى أفريقيا ذاق كل ألوان العذاب والتعاسة ، ولم يكن يخفف عنه أنه استطاع أن يعالج الملاريا بعصير الليمون وبعض الأعشاب الطبية ، ولا بأن يتحول الناس بوحى من تعاليمه من الوثنية الى المسيحية . . ولكن كان يسعده فقط أنه ينام بلا سقف فوقه . ولا جدران حوله . . وكان يتقلب على الأرض ويتمرغ فى نومه . . كأنه يريد أن يسعد باتساع المكان ، وفى احدى المرات كادت تقتله أفعى وكادينهشه أسد ولكنه كان يقول : هذا أفضل من أن أموت فى غرفة ضيقة .

والمعنى الذى يريد أن يصل إليه هذا الكتاب الذى صدر للاطفال : أن الضيق فى البيت يؤدى إلى الفجور خارجه . . ولكن القيود فى البيت تؤدى إلى الانفجار فى الشارع ولكن القيود الرشيدة هى التى تدفع إلى الانطلاق نحو ما ينفعك وينفع الناس !

لا طب ولا شفاء !

عندما نصحوا اللورد موران طبيب تشرشل فيما بين ١٩٤٠ و ١٩٦٥ بأن يكون صبورا مع الزعيم السياسى وأن ينسى فى كثير من الأحيان أنه طبيب ، لم يفهم أول الأمر ، وطلب شيئا من التوضيح ، قيل له : إنه تشرشل !

وتركوا للطبيب أن يفهم على مهله ما قيل له بسرعة . ولما حاول اللورد موران وهو يراقب كل حركات تشرشل أن يجد تفسيرا لسلوك هذه الشخصية الباهرة . وفى أول تجربة له : نودى عليه أن يدرك تشرشل فهو مريض . وهو يشكو من إسهال شديد مع مغص وكان الطبيب لا يعرف بالضبط تاريخ أمراض تشرشل . وذهب إليه وقال له تشرشل عن أوجاعه . ولكن الطبيب لم يرد . وإنما طلب أن يفحصه بسرعة . ونظر إليه تشرشل فى ضيق . ولكن الطبيب لم يبال بالشرر الذى يتطاير من عينيه . وراح يقلب فيه . وسأله تشرشل : ماذا وجدت ؟ فقال الطبيب : نفس الذى وجدته أنت . فقال تشرشل : يعنى لابد أن أتعاطى هذه الحبوب . ولكن الطبيب قال : أى شىء إلا هذه الحبوب ، لأنها لم تعد ذات قيمة فى علاجك . فقد اعتاد عليها الجسم واعتدت أنت على أن تتناولها كلما أحسست بشىء مماثل .. فلا تأخذها .

ونظر إليه تشرشل : أنت أول واحد يقول لى : لا . .

ورد اللورد موران : كطبيب من حق !

وعندما خرج الطبيب نظر تشرشل إلى سكرتيرته وهو يقول : إننى لا أحب

علماء النفس ! ولا أصدقهم إنهم مرضى ينقلون إلى زوارهم عدواهم . إنهم احق الناس بالعلاج !

ولكن تشرشل لم يغير رأيه عندما قيل له أكثر من مرة إن اللورد موران هذا ليس طبيبا نفسيا . إنه طبيب يعالج الأمراض الجسمية ووظائف أعضاء الجسم وما يصيبها من اضطراب . ولكنه أصر على أنه طبيب نفسى . .

وتشرشل لم يتجاوز الحقيقة كثيرا فالطبيب يريد أن يجعله لائقا جسميا ونفسيا . . أن يجعله قادرا على القيام بمهامه الصعبة . وتشرشل لا يطمع فى أكثر من ذلك . .

ومعنى ذلك أن الطبيب النفسى أو الجسمى ينظر إلى المريض على أنه (آلة) ، وهو ميكانيكى أو مهندس ميكانيكى ، وهو يعلم مقدما أن المريض لن يتوقف عن العمل وإلا مات من الجوع . ولذلك يرى أن هذه الآلة إنما يتم إصلاحها وهى متحركة . . وهو يحاول أن يقنع المريض بأن يعمل ولكن بحساب ، ومحاولة الإقناع هذه ليست طبا جسميا وانما هى طب نفسى . . وهذه هى مشكلة الأطباء : أنهم أمام مرضى غير قادرين على أن يتوقفوا عن العمل بعض الوقت ليستريحوا ، وإلا أصبحوا عاجزين عن مواصلة الحياة ، ولذلك فلا علاج لهم !

ولما كان أى إنسان غير مستعد أن يذهب إلى أى طبيب نفسى أو عقلى لأنه يخشى أن يوصف بأنه مجنون فإنه يذهب إلى الطبيب الجسمى يشكو له متاعب نفسية وعقلية .ويتلفت الطبيب الجسمى إلى أثر هذه المتاعب النفسية فى أعضاء المريض . فيجدها أو لا يجدها . ثم يقلب فى جسمه ويصف له بعض الحبوب والحقن للعلاج . . ويخرج الطبيب غير راض ، ويبقى المريض غير مرتاح ، ويحاول الطبيب أن يقول للمريض استرح ويحاول المريض أن يفعل ذلك ولكنه لا يستطيع لأن الحبوب والحقن ليست هى العلاج . . وتكون النتيجة ماذا : أن يصر كل

تشرشل على أن طبيبه يصف له ما ليس فيه . . ويصر كل لورد موران على أن مريضه تحفة نادرة – ولا علاج ولا شفاء . . فالحمد لله الذى لا يحمد على طب سواه !

لو كنت أيوب

كل عصر من العصور له « أيوب » الذى يصبر على البلاء ولا يقول : آه . . ويرى أن الصبر هو الوسيلة الوحيدة لتطهير النفس والسيطرة على الشيطان والطريقة الوحيدة الى رضاء الله . .

وكل انسان يتصور أنه هو نفسه « أيوب » لأنه صبر ولم ينل شيئا . وأنه مظلوم من كل الناس وأن الجنة مثواه والنار للجميع . .

وكل امرأة ترى أنها هى وحدها « أيوب » فى كل وقت . وأنها صبرت وتعذبت بلا سبب . وأن القاتل والمجرم والمعتدى عليها دائما هو الرجل : زوجها أو أبوها أو ابنها أو رئيسها . . ومن الممكن أن ينزل الرجل عن عرش العذاب . ولكن المرأة لا يمكن أن تعترف بأنها ظالمة أو قاتلة أو مصدر تعاسة أحد من الناس . . فالجلوس على العرش ، أى عرش ، مسألة وراثة !

وعندما أخذ المؤرخ الفرنسى كاستيلو يذكر عدد الصابرين فى تاريخ فرنسا لم يجد أحدًا له صبر أقسى من صبر أيوب مثل الملك لويس الرابع عشر . فقد عرض حياته ، وفى حياته توقف يلهث عند جميع أنواع العذاب والهوان . العذاب المعنوى : كل أنواع الشك والهوان والقلق والخوف والهلوسة . والعذاب الجسدى أيضًا ، فلا يوجد مرض لم يعرفه جسم الملك لويس الرابع عشر . بل إن المؤرخ كاستيلو قد أمتع القارئ بالمحاورات التى دارت بين الأطباء الأربعة الذين عالجوا

الملك وهم فالو وداكان وفابون وفليكس ، فلا يكاد هؤلاء الأطباء يفرغون من عملية للملك حتى يتناقشوا فى موعد العملية القادمة ، وقد أجريت للملك – فى نهاية القرن السابع عشر – اثنتان وعشرون عملية جراحية . . ولما شعر الملك بشىء من العذاب طلب إلى الأديب راسين أن يخفف عنه ، فذهب الأديب وأتى له بكتاب « حياة العظماء » للكاتب اللاتينى بلوتارك وراح يقرأ له ، ومن الغريب أن راسين كان يرفع صوته حتى يعلو على صوت المعركة – معركة الأطباء مع المرض ومعركة الملك مع الأطباء . . وكان الملك يستعيده بعض السطور وأحيانا بعض الصفحات .

وتشجع الأديب وهو مبهور بصلابة الملك فقال له : مولاى . . أما يزال عندك أمل فى هذه الحياة ؟

فقال الملك : لا يزال عندى أمل فى أن أرى هؤلاء الأربعة مرضى وكل الناس موتى !

أخيرا . . فقد أيوب صبره ولكن قبل وفاته بيوم واحد !

كازانوفا

كازانوفا – رجل سيئ السمعة ، لأنه نصاب ومغامر ومقامر وذئب الليل وجاسوس وسافل فى جميع الحالات . ولكنه مع ذلك كاتب وأديب وفيلسوف ولكن من السهل أن يشتمه الناس ومن الصعب أن يمدحوه . لأن المدح يقتضى أن يقرأ الانسان كتابه « تاريخ حياتى » الذى صدر منذ سنوات فى اثنى عشر جزءا . وكازانوفا كاتب إيطالى ولد فى البندقيه من أبوين يعملان فى التمثيل . وكازانوفا هذا يعلم منذ بداية حياته أنه لن يكون إنسانا محترما ، ولذلك تعلق بالناس المحترمين .

وحشر نفسه فى الطبقة الأرستقراطية . ورأيه فى هذا الطبقة : « أنها مجموعة من الناس التافهين الكاذبين الراغبين فى التسلية بشرط أن يكون الضحية واحداً منهم . وهم كسالى فى حاجة إلى جواسيس » .

وكان يعلم أيضا أنه أسهل جدا أن تغزو قلب المرأة من أن تغزو أصغر قلعة فى الدنيا . لماذا ؟ يقول لك الفيلسوف كازانوفا : لا توجد امرأة لا يغريها أن تقول لها إنك جميلة . هذه بديهية . مهما كانت قبيحة . ومهما كانت تسمع هذه الكلمة مليون مرة فى اليوم ومن مليون شاب أجمل وأغنى منك . ولكن عبقرية الرجال تظهر فى الوقت الذى تقول فيه هذه العبارة السحرية . عبقريتى هى أن أقولها فى الوقت غير المناسب . أى عندما يكون أى مديح نوعا من المفاجأة لها . مثلا : « لو سقطت سيدة فى الوحل وانكسرت ساقها ، فى هذه اللحظة التى تذوب فيها عيون الناس كذبا . . هنا فقط قل العبارة غير المناسبة . . قلها ولا تتردد . سوف تكون سخيفا ووقحا وسافلا ، ولكن المرأة لن تنسى لك هذه الجملة مدى حياتها » وغير ذلك عشرات الأمثلة للسفالة المدروسة !

وأعجبنى لكازانوفا (١٧٢٥ – ١٧٩٨) رأيه فى الناس يقول : ما الذى تريده من الناس ؟ لا شىء سوى أن يكونوا فى خدمتك ، ما الذى تريده من خدمات الناس ؟ أن يكونوا جسرا إلى مطامعك ؟ ما الذى تريده من المطامع ؟ أن تكون وحدك فوق أعناق الناس . . إذن لابد من الناس أردت أو لم ترد . . ولا بد أن تقع فى خلاف مع الناس . . مدى حياتك . ولكن كيف تنجو من سفالة الناس ؟ هناك حلول : أن تكون سافلا مثلهم . . وأن تتظاهر بالفضيلة وأنت كاذب . . وأن تتوارى خلف سيدة جميلة غنية ، هنا فقط تصبح جميلا فى عيون الناس !

ويقول : علمتنى تجاربى أنه ليس أحقر من الناس إلا الناس !

والكتاب ملىء بالتجارب والنوادر والحوادث التى وقعت فى نصف قرن فى

بلاط الملوك والأمراء والأغنياء . والكتاب ممتع لولا أن المؤلف قد اختار أحط الناس وأحط الأشياء مادة لكتابته . . إنه فيلسوف فنان اختار الحقارة والنذالة – ولكنه يستحق الاحترام لأنه لم يخف عيوبه – وهذه صفة يفتقدها كثير من الكتاب !

منتهى التعب

رأيت مارلين مونرو خمس دقائق . لذلك عندما انتحرت حزنت عليها جدا . وكل ما دار بيني وبينها أنها أشارت بذراعها من بعيد : هالو . . فرددت عليها قائلاً : هالو . .

وانتهت بذلك المقابلة التى أعدها مدير أعمالها ومدير دعايتها وسكرتيرتها الخاصة لكى أحظى منها بكلمة أو بعبارة أو ابتسامة شخصية ، فهى معبودة الملايين . وهى معلقة على جدار فى أركان الدنيا إلى جوار الكوكا – أشهر ما أخرجت أمريكا للعالم . ومارلين مونرو كانت المرأة الوحيدة فى العالم التى تغار منها أية امرأة . فلو وجدت أية زوجة صورة مارلين مونرو فى جيب زوجها لا تهمته فى ذوقه وأخرجت من حقيبتها هى صورة أجمل لمارلين وقدمتها للزوج – لأنه لا وجه للمقارنة بينها وبين أية امرأة أخرى . لأنها ليست كالنساء فى الجمال والدلال والأنوثة . . وهى ليست كأية امرأة أخرى فى عذابها : فهى قطعة من اللحم الوردى يشويها المخرجون والمصورون فى نور ونار الأستوديوهات ويقدمونها للملايين طعامًا للمحرومين . ولذلك لا وقت عندها للراحة أو للنوم أو للحياة الخاصة .. ولا حرية لها فى أن تروح وتجيء ولا أن تتكلم مع أحد من الناس – أنا مثلا . فهناك من يكتب لها الكلام . لأن الكلام ليس صناعتها ، وهى لا تعرف ما ينفعها ولا الذى يضرها

نفسيا وتجاريا ، ولذلك استولى عليها ، باسم الدفاع عنها ، عشرات الخبراء فى البيع والشراء .

– فهى لا تعرف ولم تعرف الراحة . لأن كل شىء محسوب بالدقيقة والثانية والمليون دولار . . وتزوجها الكاتب الأمريكى اليهودى آرثر ميللر . وكانت مبهورة به . فهو مفكر وفيلسوف وفنان . وهى فتاة ساذجة عادية غير مثقفة . واستولى عليها تماما . وتدخل فى أعمالها وأموالها . . وعندما انتحرت بالخمر والحبوب المنومة تحولت إلى مشهد من مسرحية (بعد السقوط) التى كتبها آرثر ميللر . وعاب عليها أن لديها شعورا بالامتنان لكل الناس ونبهها إلى أن الناس جميعا يجب أن يشعروا بالامتنان لها ! وكانت مسرحيته نوعا من التشريح الشرعى للجثة قبل دفنها نهائيا !

وقد نشر فى الصحف والمجلات العالمية مقال طويل لكاتب يهودى آخر هو نورمان مايلر يصف فيه زواج (الأميرة اليهودية مارلين مونرو) من آرثر ميللر . . وهو يتناول حياتها من جديد وفى عبارة جميلة ساخرة أليمة . . وكأنه هو أيضا يريد أن يدافع عن آرثر ميللر الحى أمام مارلين مونرو الميتة . . ويقول هنرى مايلر : إن زوجها قد أصر على أن تعتنق الديانة اليهودية قبل زواجها !

فجاء هذا الإصرار غريبا من رجل فنان عالمى شيوعى واسع الأفق . . ولكنه رغم كل شىء لم ينس أنه يهودى ، وأن زوجته الكاثوليكية يجب أن تغير دينها . ولا يهمه بعد ذلك أن تعيش أو تموت . . المهم أنه أضافها إلى طائفته !

شىء عجيب : كل هذا المقال الجميل الرائع المثير من أجل هذا المعنى – منتهى التعصب !

بعد عبد الناصر . .

كلما مر وقت أطول على حياة ووفاة جمال عبد الناصر عرفنا – بالضبط – أبعاد المعركة التي عاشها والتى عاش من بعدها . . فليس واضحاً الآن ماذا جرى على أرضنا يوم العدوان ويوم النكسة . .

ولا هو معروف بوضوح ماذا دار وراء الأبواب الكثيرة المغلقة هنا وفى العواصم العربية والأوربية والأمريكية . إن كل الذى قرأناه وسمعنا عنه كان مصدره الطرف الآخر : ولكن لا خلاف بين أحد من الأصدقاء والأعداء على الأعمال الجليلة التى حققتها ثورة ٥٢ على كل مستوى . وبقدر ما كانت مشاكلها صعبة . بقدر ما كانت تحدياتها أصعب . وبقدر ما كانت مكاسبنا كبيرة ، بقدر ما كان الثمن الذى دفعه الشعب فادحا . ولا ثورة بلا ثمن . . ولا ثمن بغير عرق ودم . . اليوم وغدا وبعد غد !

وقد نجح جمال عبد الناصر فى تغيير مسار التاريخ المصرى والتاريخ العربى . وتكاثرت عليه وعلينا الأعداء الأقوياء الأغنياء . وتضاعفت مصاعبنا وتكدست همومنا وتراكمت مشاكلنا . وسوف تبقى كذلك فترة طويلة . .

ولذلك كانت أعباء خليفة جمال عبد الناصر ثقيلة . وكانت احتياجاته إلى القوة والتفكير والتدبير لا حدود لها . وقد استطاع أنور السادات فى فترة قصيرة أن يعيد الكثير من الأوضاع والعلاقات الإنسانية والاجتماعية إلى مسارها الطبيعى والسليم . وكان عليه أن يواجه المشاكل من جديد .

مشاكل الأعداء والأصدقاء ، فى الخارج وفى الداخل . وكلها تحديات هائلة ومروعة أيضًا . .

وليس من قبيل الصدفة أن تحتفل مصر فى أيام متقاربة بذكرى وفاة جمال عبد الناصر وبيوم المعلم . . فقد كان جمال عبد الناصر معلما فى الكلية الحربية وكان – ككل الزعماء – معلما لشعبه أيضًا . وليس غريبا أن يقف الرئيس أنور السادات متحدثا فى ذكرى المعلم جمال عبد الناصر ، وفى يوم المعلم أيضًا . .

فالزعماء أساتذة الشعوب وآباؤها كذلك . .

وكان أول درس ألقاه أنور السادات على شعبه موضوعه : العلم والإيمان . . أو بالعلم والإيمان يمكن لمصر أن تحى ذكرى رجالها ومعلميها وأن تؤمن بأن النصر حليفنا مادمنا تؤمن بذلك . . ومادام إيماننا عن علم ، وليس عن وهم . .

رحم الله جمال عبد الناصر ، لقاء ما صنع لمصر وللأمة العربية ، ورحم الله خليفته أنور السادات ومن ينصر الله ينصره ويثبت أقدامه . . والذكرى تنفع المؤمنين ! . .

الطريق إلى العقاد

عندما كنت فى فرنسا قالوا لنا : فى هذا الطريق كان يمشى نابليون .

وننظر إلى الطريق فلا نعرف ما هى العلاقة بين عبقرية نابليون العسكرية والسياسية والإدارية وبين هذه الأشجار وهذه الأعشاب . . وأشعة الشمس تجىء من وراء السحب تضىء جانبًا من كل شىء ! لا علاقة ولكنه تاريخ نابليون قد جعل لكل حجرة وكل شجرة معنى ، كأنها شاركت فى قراراته التاريخية لعبور الألب وإحراق موسكو واحتراق الأسطول الفرنسى فى الإسكندرية . .

وعندما كنت فى مدينة انسبروك بالنمسا كان يقال لنا : وهذا هو الطريق الذى كان يمشى فيه الشاعر العظيم جيته . وكان يرافقه أحيانًا الموسيقار العظيم بيتهوفن . وفى هذا الطريق استوقفهما أحد الناس الطيبين ورفع القبعة لهما وسألهما : إن كان أحدهما العمدة !

وفى مدينة تيبنجن بألمانيا قالوا لى : وفى هذا الطريق كان فيلسوف الوجودية مارتن هيدجر يمشى . . ويتوكأ على عصاه لا عن ضعف فى صحته ولكن عن وجهة نظر وهى : أنه ليس صحيحا أن الإنسان استطاع أن يعتمد على عينيه فقط ، أو أذنيه فقط أو ساقيه فقط . . وإنما الإنسان محتاج إلى أطراف كثيرة تضاف إلى أطرافه وإحساساته الخمس لكى يرى أبعد ، ولكى يجعل غيره يرى أبعد وأوسع وأعمق وأصدق .. فليست هذه العصا فى يده إلا رمزا لضرورة أن تتوكأ العين على التلسكوب ، والأذن على الرادار . والساق على الصواريخ ، والعقل الإنسانى على عشرات العقول الأخرى وعلى الله . !

ولا علاقة هناك بين هدوء هذا الفيلسوف وصوت العصافير حولى ، ولا نعومة المنحنيات واتساعها واستقامتها . ولا أعرف لماذا اختار هذا الطريق . . كأنما الرجل قد جاء إلى هذا الطريق ليعرض نفسه على الأشجار وعلى السحب وعلى الضياء الكسيرة ، ويمشى مشغولا بالذى فى رأسه . . لكنه سار من هنا ، ولذلك فالطريق له معنى تاريخى ، بالإضافة إلى معناه الجغرافى – هكذا قيل لى وهكذا تصورت !

ولكن لم أر طريقا أروع ولا أمتع من الطريق بين القاهرة ومصر الجديدة . شىء عجيب كان يحدث كل يوم جمعة . فالشمس تشرق مبكرة جدا . وبسرعة . ولكن هذه الشمس تظل بطيئة جدا بين الخامسة حتى التاسعة والنصف من صباح هذا اليوم . . فلابد أن نضيع هذا الوقت بأى شكل قبل أن يحين الموعد المحدد لزيارة الأستاذ العقاد فى بيته بمصر الجديدة . ولكن هذا الطريق ليست له معالم فى

عيني . . إنه صغير ضيق . والأشجار قريبة من النوافذ . . والبيوت تكاد تلتصق بالمترو ، بل أكاد أسمع أحاديث الناس . وأجدها فرصة لكي أضحك من هؤلاء الذين يتحدثون كلاما سخيفا . . ولا يتركون طعامهم وشرابهم وأولادهم ويقفزون معنا فى الطريق إلى العقاد . فكل الطريق هو العقاد نفسه . مستقيم مثل منطق العقاد . . والعمارات طبقات بعضها فوق بعض مثل المقدمات والنتائج فى مقالات العقاد . والشمس لم تدع شجرة ولا حجرة إلا أبرزتها ، تماما كالوضوح الذى يشرق فى كتب العقاد . وهذه الأعلام المرفوعة على المصالح الحكومية ، ليس سببها أن الناس فى إجازة . وأنها احترام لكل من يستريح من عمله . . أو معناها إذا غاب الموظفون ، فالدولة باقية . . ولكن معناها ، وكان ذلك إحساسى ، أنها مرفوعة تحية لكل من يذهب إلى بيت العقاد . .

وتجىء مصر الجديدة بطيئة . . وأتزاحم على الباب . وأقول أتزاحم ، لأننى مجموعة كبيرة من إحساسات الشوق والقلق والخوف والاعتزاز والاحترام وحب المعرفة . وبسرعة أهبط من المترو . وأتجه إلى شارع السلطان سليم رقم ١٢ . . وأصعد السلالم التى لم أعرف عددها رغم اننى تسلقتها عشرين عاما . . فلم أكن أشعر بها . . وإنما كنت أتطلع إلى نهايتها . . ولم أكن أتسلقها ، وإنما كانت هى تنزلق تحت قدمى ، والباب الذى عرفت فيما بعد أنه ضيق جدا . والممر الذى عرفت أنه قصير . . والغرفة خانقة وكنت أراها واسعة ، كعقل العقاد ، دافئة كقلبه ، باهرة كفكره . .

ولم تكن جلسة العقاد كل يوم جمعة ، محاضرة أو ندوة . . وإنما متعة للعقل وراحة للنفس ، وشحنة هائلة من احترام الفكر الإنسانى ، تعيننا على بقية الأيام والسنوات . فقد كان العقاد كنزًا لا يفنى وكان الطريق إليه شوقا إليه ، وتلهفًا على الجلوس معه ، وخوفا من أن يسبقنا أحد إلى ذلك ولو بدقيقة واحدة !

عصا السادات

الله يكون فى عون أنور السادات فالناس ينظرون إلى العصا التى فى يده ، والتى قطعها من إحدى شجيرات غزة ، على أنها عصا موسى . . فهو يستطيع بهذه العصا أن يضرب البحر فينشق نصفين : نصف من الذهب ونصف من الفضة . وأن هذا الذهب سيتحول بسرعة إلى أقراط فى أذن كل فتاة ، والفضة إلى ملاعق فى فم كل رجل . .

وأن أنور السادات قادر على أن يلق بعصاه فإذا هى حية تسعى تأكل الفقر والجوع والجهل والمرض والخوف والدمار ، فى لحظة عين .

وأن أنور السادات قادر على أن يرفع عصاه فوق رأسه فتكون « مانعة الصواعق » التى تجيء من الشرق ومن الغرب وأنه وحده الذى يمتص الشحنات الكهربائية الحارقة ، فإذا الكهرباء نور ، وإذا النار برد وسلام علينا جميعا !

وهذا حسن ظن عظيم بالقائد المؤمن أنور السادات . ولكنه عبء ثقيل عليه ، فهو لن يستطيع ذلك ، ولا استطاعه أحد فى كل العصور بهذه السرعة !

ولكننا نتطلع إلى المستقبل بكل آمالنا ، وكل حرمان السنين الطويلة ونتعجل بعد الغد ، قبل الغد نفسه ومعنا حق . فنحن نريد أن نعبر إلى أبعد مما عبرت قواتنا العسكرية . . ونريد أن نخرج العمارات من تحت الأرض كاملة سليمة ، كأننا أخفيناها عن العدو . . ولكن بتعويذه سحرية خرجت ناطحات السحاب فى بورسعيد والسويس والإسماعيلية . واستوت الطرق وعلى جانبيها الحدائق ،

واتسعت الموانى وتكدست فيها السلع ، وتضاعفت مطارات مصر ، وتكاثرت الفنادق العالمية ، وزحف ملايين الشبان إلى مكاتبهم ومصانعهم وثكناتهم فى حيوية وسعادة . كل ذلك أملنا ، وأمل أنور السادات . ولم يعد لدينا أدنى شك فى ذلك !

« ولكن » . . لابد من هذه الكلمة طبعًا . نحن نحتاج إلى صبر . لأن الطريق طويل وشاق وصعب ولا يمكن لرجل واحد أن يمشى دون مساعدة من الملايين ولذلك يجب أن نعمل معا . وأن نصبر معا وأن نحلم وعيوننا مفتوحة . . وسوف تكون لنا فى النهاية هذه العصا السحرية . هذه العصا مكتوب عليها : العلم والإيمان : فالعلم نور ، والإيمان صبر . ولقد جربنا ذلك وكان لنا ما أسعدنا يوم ٦ أكتوبر وما بعده . . فمزيدًا من العلم والإيمان وسوف تنبت العصا السحرية فى كل حقل من أرضنا العربية !

لغز العرب

كل متاعب الإنسان تبدأ فى طفولته . أى عندما يصاب بشىء يوجعه ثم لا يقوى على التخلص منه . فيظل هذا الوجع دفينا فى أعماقه فيلوى سلوكه العام إلى أن يكتشفه الطبيب . فكل أوجاع الرجولة ولدت فى الطفولة هذه نظرية .

وقد صدرت أخيرًا كتب عن « لورانس العرب » — ذلك الشاب ت . أ . لورانس الذى حارب مع العرب والإنجليز ضد الأتراك فى نهاية القرن الماضى وأوائل القرن العشرين . هذا الشاب نموذج للشخصية الخرافية البطولية الشاذة . فقد اتخذه شباب العالم نموذجا عاليا للمغامرة والمقامرة فهو إنسان متعدد المواهب . كاتب وفيلسوف وجندى ومقاتل وأثرى . . وشخصية انتحارية أيضًا . . ومشكوك

فى جميع أفكاره مع العرب أو مع الإنجليز أو ضد العرب والإنجليز معا . والكتاب الذى صدر أخيراً يتساءل . هل صحيح لورانس إنسان معقد من المرأة !

ويهتدى المؤلف إلى أنه كذلك فلم يعرف أحد أن له علاقات نسائية وإنما تقدم مرة إلى فتاة جميلة . ومن يومها لم يرفع عينه إلى واحدة أخرى أو يمد يده ، وقرر أن يعيش مع الرجال وبينهم . ولما سئلت هذه الفتاة العجوز قبل وفاتها منذ تسع سنوات لماذا رفضت لورانس مؤلف « أعمدة الحكمة السبعة » قالت : إنه خجول جدا . . إنه لم ينظر إلى عينى . إنه لم يمهد لهذه الرغبة . . ثم إنه قصير القامة جدا . ولذلك فضلت أخاه الأكبر الأطول الأجرأ !

ولكن قبل ذلك انكسرت ساقاه . ولم يفلح الطب فى أن يشفيه من هذه الكسور . وقد أدى ذلك إلى تعويق نموه . فكان طوله مترا ونصفا . ثم إنه اكتشف أنه ابن غير شرعى وصدمته هذه الفضيحة . . وهرب من أوربا إلى الشرق وألقى بنفسه فى الصحراء يحارب الأتراك ويمشى أياما على قدميه . . ويسافر من فلسطين إلى مصر على ظهر أربعة خيول يموت الواحد بعد الآخر ويكمل الطريق على ساقيه الهزيلتين . . ثم يحارب مع الإنجليز ضد الأتراك . . ثم إذا باللورد بالفور يعد اليهود بوطن قومى . ويتهمه العرب بالخيانة ويهرب من الجيش . ليعود إليه باسم مستعار . . ثم يركب موتوسيكلا . . ويقوده بسرعة مجنونة ويحقق حلم حياته فيغيب عن الوعى أياما فلا يدرى أنه مات فى ١٩ مايو سنة ١٩٣٥ عن ٤٧ عاما . .

وبرغم هذا العنف فى حياته ، أو بسببه ، فهو إنسان متعدد المواهب ، ظل طول عمره يلاحق الموت فى البر والبحر والجو ، حتى طار من فوق الموتوسيكل واصطدم بشجرة ألقت به فى الماء لغزا من ألغاز الثورة العربية ضد الأتراك والإنجليز !

لا يعرف الملل . .

من الضرورى أن تستغرب كل ما حولك من حين إلى حين . لأننا نعيش حكم العادة ، وبحكم العادة لا نلتفت كثيرا إلى الذى حولنا من الناس أو الأشياء . فالشارع الذى تمشى فيه عشرات السنين لا تعرف ملامحه بوضوح . بل لا تعرف أسماء المحلات ولا ألوانها ولا أحجامها . . وأنت لا تنظر عادة إلى كل النوافذ والبلكونات . . وإنما تتمشى بعينك عليها دون أن تميزها . . لماذا ؟ لأنك اعتدت عليها .. اعتدت على أن تراها بصورة عامة . . أى اعتدت على ألا تراها . وكذلك الناس . كلهم بحكم العادة مثل النوافذ والبلكونات ليسوا واضحين تماماً . .

فأنا وأنت ونحن جميعا نحول الأشياء كلها إلى مجرد عادات . . أو إلى أشياء عادية غير محددة الملامح أى ليست لها صفات بارزة فى اللون والطعم والحجم . لماذا ؟ لأن « العادة » قادرة على مسخ الناس واستبعاد أهم ملامحهم ومزاياهم . .

ومن هنا يدخل الملل حياتنا . .

فالملل يولد من التشابه بين الأشياء وبين الناس وبين الأفكار والأصوات . . ولكى تهرب من الملل يجب أن تجعل للأشياء والناس طعما متنوعا ولونا مختلفا .

ولذلك فالطفل لا يعرف الملل لأن كل شىء جديد عليه وجديد عنه ، وقد يرى الطفل ظلطة صغيرة فيرمى نفسه عليها . . وكأنها كنز . . أو كأنها أعظم شىء فى الدنيا . . بينما ينظر الواحد منا إلى صاروخ وكأنه يرى عربة كارو . . لا شىء

يدهشه . . لا شيء يستغرقه . ولذلك عرفنا الملل الذى لا يعرفه الطفل !

وأكثر الناس استمتاعا بالحياة هم الذين عندهم هذه النظرة الطفولية أو هذه القدرة على أن تستغرقهم كل الأشياء صغيرة أو كبيرة . . ومن أهم صفات العباقرة أن لديهم هذه الطفولة حتى الموت ، ويقال عن العالم الكبير نيوتن إن زوجة أحد الأصدقاء قد أهدته بلوفر من الصوف . وشكرها على هذه الهدية ، وكلما زاره أحد من الناس عرض عليه البلوفر . وامتدح ذوق هذه السيدة . ولاحظ أحد أصدقائه أنه أسرف فى تقدير الهدية . . ولكن دهشة هذا الصديق قد بلغت مداها عندما علم أن نيوتن مفتون بهذا البلوفر لأن به خيطا أحمر على الصدر .

والذى لم يعرفه نيوتن هو أن السيدة التى صنعت له هذه الهدية لم تقصد ذلك مطلقا . وإنما هذا الخيط الأحمر قد جاء خطأ . ولكنه مثل أى طفل وقعت عيناه على شيء أحمر فأعجبه تماما !

مع أن الذى رآه شيء صغير . ولكن الشيء الصغير عند الأطفال العباقرة ، شيء كبير مدهش ، وهذا هو الفرق بين الذين لا يعرفون الملل ، والذين لا يعرفون إلا الملل !

الهرم مفاجأة !

قالوا : الدنيا بها سبع عجائب .

هذه العجائب هى برج بابل والهرم وحدائق بابل وأسوار بابل وفنار الإسكندرية وبعض التماثيل وربما كان أبو الهول واحدا من هذه العجائب .

وهى جميعا ليست من العجائب الآن ، ولكن الأعجوبة التى كانت ومازال هى : الهرم الأكبر ، ليس هذا رأيى . ولكنه رأى العلماء . أحدث رأى لهم نشرته

مجلة ريدر دايجست الأمريكية فى عددها الأخير. الرأى يقول : إنه لا يمكن أن يكون الهرم قد بنى فى عشرين عاما كما قال المؤرخ اليونانى هيرودوت وفى نفس الوقت لا يمكن إلا أن يكون قد بنى فى هذه المدة . .

فالذى بنى الهرم الأكبر ، أو الذى بنى فى عهده ، هو الملك خوفو . وهو قد حكم مصر ٢٣ عاما . ولو مات الملك دون أن يكمل بناء الهرم فسوف يبقى ناقصا ، كما حدث لأعمال معمارية فلكية كثيرة . إذن لابد أن يكون قد أكمل بناؤه فى عصره .

وهذا الهرم بأحجاره التى بلغت مليونين ونصف مليون حجر والتى ألصقت بعضها ببعض دون أسمنت أو مونة ودون أن نتمكن من إدخال ورقة بين أى حجرين ، لا يمكن أن يكون قد بنى فى عشرين عاما . فالأحجار كثيرة وأوزانها بين عشرة أطنان وخمسين طنا وارتفاع الهرم يعادل ارتفاع عمارة من أربعين طابقا . أوكما قال نابليون ان أحجار الهرم يمكن ان تدور حول فرنسا على شكل سور ارتفاعه عشر ياردات وعرضه ياردة واحدة . .

يقول العلماء من المستحيل أن يكون هذا البناء الشاهق قد تمّ فى هذه الفترة القصيرة .

ويقول هيرودوت إنه سمع من رجال الدين المصريين أن المهندسين استخدموا عددا كبيرا من الروافع . ولم يشرح لنا معنى هذه الروافع ولا شكلها ولا حجمها . ولا كيف أنها رفعت الأحجار إلى هذا العلو دون أن ترى خدشا واحدا على الحجر ! .

هناك نظرية تقول : إن ظهور الهرم بهذه الصورة الكاملة يعتبر مفاجأة هندسية معمارية فلكية . فلا توجد أية مقدمات معمارية لهذا البناء العظيم . وإنما ظهر فجأة . وهذا غير مألوف فى تاريخ الحضارة الإنسانية . إذن لابد أن تجىء كائنات

من كواكب أخرى لمساعدة الفراعنة فى بناء هذا الهرم ! .

ثم إن شكل الهرم وأبعاده طولا وعرضا وارتفاعا ، ليس إلا تسجيلا فلكيا للهيئة السماوية يوم أقيم الهرم . .ويمكن حساب كل معالم السماء فوقنا عن طريق ضرب وطرح وقسمة أبعاد الهرم بعضها على بعض !

ونظرية جديدة تقول : إن الهرم قد استخدم فى بنائه العقل الإلكترونى . وأكثر من ذلك أن أشعة ليزر قد استخدمها الفراعنة فى قطع الأحجار .

ونظرية أخرى تقول : لابد أن يكون الفراعنة قد اهتدوا إلى اختراع وسيلة علمية متطورة جدا لخلق حزام لانعدام الوزن عند سطح الأرض ! بمعنى أنه يستطيعون رفع أى حجر أيا كان وزنه ، بإصبع طفل صغير تماما كما يحدث فى سفن الفضاء . أو كما يحدث على سطح القمر ، حيث لا توجد إلا جاذبية ضئيلة . . وإلا استحال عليهم تماما وضع هذه الكتل الجرانيتية على هذا المستوى العالى من سطح الأرض !

ولو كان الهرم هو المعجزة الوحيدة لقلنا إن كائنات من كواكب أخرى هبطت فجأة وسيطرت عليها هذه الثروة . . ولكن الطب الفرعونى والزراعة والحرب والسياسة والعمارة والفن ، كلها معجزات عقلية ووجدانية . . إننا صناع الماضى كله . فهل يكون لنا نصيب من معجزات المستقبل !

ذهابا وإيابا . .

أعجبتني هذه الفكرة : إن المنطقة التي تمدنا بشيء يجب أن نعلم أهلها كيف يمدوننا بشيء أفضل !

وهي نظرية أيضًا . .

مثلا في ولاية (تيزى – أوزو) في الجزائر توجد مدرسة . هذه المدرسة لتعليم المواطنين الخدمة في المطاعم والفنادق . المدرسة نظيفة جدا – ككل شيء . والطلبة هم الذين يقومون بكل العمل : الغسل والكنس والطبخ وتقديم الطعام والحساب . وابتداء من الباب الرئيسي حتى تخرج فكل الذين تراهم طلبة .

والمهم أن هذه المدرسة إحدى اثنتين في الجزائر . وهذه المدرسة تبعد عن العاصمة حوالي ٢٠٠ كيلو متر . .

وهذه المنطقة من الجزائر قد اشتهرت بأن كل الذين يعملون في المطاعم يجيئون منها ، تماما كما أن عدد المشتغلين في المطاعم في مصر يجيئون من أسوان وأسيوط وكذلك البوابون . ولذلك كان من الأفضل إنشاء مدرسة في هذه المناطق لتعليم الناس كيف يكونون سفرجية بصورة علمية مفيدة . وتتوقع إدارة المدرسة أن يتزايد عدد الطلبة لأن هذه الصناعة مربحة . ولأن من طبيعة سكان هذه الولاية : النظام والنظافة والأدب .

سألت مدير المدرسة : ألا توجد فتيات ؟ .

فقال : لا توجد .

وسألت : إن كان هناك أى سبب لعدم وجود فتيات ؟

وقال : إننا فى منطقة بدوية . .

ولاحظت أيضًا أن فى بعض المدارس إذا حاولنا التقاط صور للفتيات أخفت كل واحدة وجهها – طبعا لا علاقة بين إخفاء الوجه وظهور الساقين فى الملابس القصيرة . . فالملابس القصيرة موضة . والمرأة هنا موضة جدا . أما إخفاء الوجه فله علاقة بالأخلاق العامة . . فنحن فى مجتمع قبلى . . ولا تستطيع الفتاة أن تقف أمام مصور ولا يوافق أهلها . ولا يستطيع المدرس أن يرغمها على ذلك ، بل إن ناظر إحدى المدارس احتاج إلى أن نستأذن له من الوزارة لكى نلتقط بعض صور للفتيات أثناء جلوسهن فى الفصل :

سألت إحدى الفتيات الصغيرات : أنا لست جزائريا فن أى البلاد العربية أنا ؟ فقالت بسرعة : من مصر أو لبنان ؟ قلت : لماذا ؟

قالت : لأنك تنظر إلى الفتيات ذهابا وإيابا !

وضحكنا نحن الثمانية – العمدة ومدير العلاقات العامة ونائب المحافظ وأربعة من المدرسين – فقد وقفنا ننظر لبعض الوجوه الجميلة فى الملابس الثقيلة لكى نلتقط لها بعض الصور ! . .

اتقوا الله

من السهل جدا إرضاء السائح ، ومن السهل جدا إغضابه . . فهو مسافر مستعجل . . وليس فى صدره متسع للبحث عن أعذار للبلاد التى يزورها ، لأن لديه إحساسا بأنه جاء من آخر الدنيا إلى مصر ، وأنه فضلها على بلاد أخرى . وأنه يستحق الشكر من مصر والمصريين لهذا السبب . . ثم إنه جاء إلى مصر ومعه

« فلوس » ، وهذه الفلوس نحن محتاجون إليها . . وهو يعلم – بصور مبالغ فيها جدا – أننا فى حاجة إلى هذه الفلوس ، أى أننا فقراء ! ! وكذلك عنده إحساس بأنه جاء ينقذنا ، وهو شعور كريه ومؤلم لكل مصرى ، لأنه ليس صحيحا . . فلا نحن فقراء إلى هذه الدرجة ، ولا هو غنى إلى هذه الدرجة التى يتصورها . .

ثم إن السائح لن يلتقى بموظفى وزارة السياحة الذين يعرفون – أو يدرسون أو يسمعون أو يتوهمون – أصول معاملة السائح . ولكنه سوف يلتقى بمواطنين عاديين ، لهم هموم ومشاكل ليس عندهم وقت ولا صبر للاحتفال بالسائح الذى جاء من آخر الدنيا لكى ينفق نصف أمواله فى هيلتون وشيراتون وونتر بالاس ونيوكتراكت والباقى ينفقه فى خان الخليلى ، أما « الفكة » فإنه يلقى بها فى مطار القاهرة ، فهو بهذا الشكل لا ينفق على كل الشعب ، ولا يلتقى بكل الناس . ولكنه يكفيه جدا أن يعامله بعض الناس معاملة حسنة . . ويكفيه جدا أن يخدعه بائع واحد لكى يلعن مصر واليوم الذى استدرجه أحد إلى زيارتها ! . .

ولذلك فالسائح زائر عنده استعداد هائل لظلم مصر وشعب مصر ، وإن كان لا يظلم تاريخ مصر . فالهرم وأبو الهول وأبو سنبل أقوى وأروع وأبقى من أن يخدش سمعتها إنسان ، أيا كانت الفلوس التى فى جيبه . . فحادث واحد يكفى وشخص واحد يكفى لأن يتأثر السائح لنا أو ضدنا . .

فمنذ سنوات صدر كتاب بعنوان « فلوبير فى مصر » وفلوبير هو الأديب الفرنسى العظيم جوستاف فلوبير الذى زار مصر منذ أكثر من مائة عام . ولقى ما أسعده فى قنا والفيوم ، ومن أجل بعض الرجال وسيدة واحدة تركية فى قنا عاد فلوبير بأروع وأبقى الذكريات عن مصر والشرق الأوسط . .

ولا أحد يعرف من الذى سيلتقى به السائحون إذا جاءوا إلى مصر . . ولكن أسهل لنا جميعا لو أننا اتخذنا شعارًا واضحًا هو : اتقوا الله فى مصر أيها

المصريون – فى مصر التى نعرفها ومصر التى يجب أن يعرفها السائح ، وأن تبقى صورتها جميلة فى عينيه ساحرة فى أذنيه ، حلوة على شفتيه لعله يجىء مرة أخرى ويستدرج آخرين ، فشخص واحد لا يستهان به إذا كان صديقا أو عدوا وما أحوجنا إلى الأصدقاء ! . .

قالوا إنها مثل أشجار الصندل تتعطر منها كل فاس تقطعها ! . .
كن عاقلا اليوم ومجنونا غدا – منتهى الحكمة ! . .
إنما تقصر فساتين النساء لتشغلك عن النظر إلى وجهها ! .

الموت جمال

فى السنوات الماضية أثيرت قضية فلكية : كيف كان جو مدينة فيينا يوم مات الموسيقار موتسارت ؟ قيل إن الجو كان عاصفا وقيل بل كان عاديا . أما سبب السؤال عن الجو فهو أن المؤرخين يريدون أن يعرفوا : هل صحيح أن زوجة موتسارت لم تشارك فى جنازته لأنها كانت مريضة وكانت أضعف من احتمالها للجو ، أو أنها كانت على خلاف معه ، وأنها كانت عشيقة لرجل آخر !

وأثبت العلماء أن الجو كان معتدلا وأنه كان فى إمكانها أن تشارك فى الجنازة دون أن ترتدى بالطو من الفراء !

وهذه الأيام يبحث المؤرخون صحة القصة التى رواها ابن القائد ولنجتون الذى هزم نابليون فى معركة واترلو . فقد ذهب ابن ولنجتون إلى روسيا عام ١٩١٢ بمناسبة الاحتفال بمرور مائة سنة على معركة بورودينو التى هزم فيها نابليون فى روسيا . ويقول ابن ولنجتون إن رجلا قابله وقال إنه كان فى الثانى عشرة من عمره عندما أمسك حصان نابليون وعاونه على أن يعبر النهر . وقد لاحظ هذا الطفل أن

نابليون كانت له لحية . لم يتسع وقته ليحلق لحيته . وأن لحية نابليون كانت بيضاء . وهذا الطفل كان من جورجيا وهى إحدى الجمهوريات التى اشتهرت بالناس الذين تتجاوز أعمارهم المائة . والمؤرخون يتساءلون هل صحيح أن نابليون الذى بلغ من العمر ٤٣ سنة فى ذلك الوقت كانت له لحية بيضاء ، أم أن هذا هو الجليد وخيال الطفل المبهور بالقائد العظيم ؟

أما سبب البحث عن صحة هذه الحكاية فلأن بعض الأثريين قد عثروا أخيرًا على شعرات من لحية نابليون . وهذه الشعرات بيضاء . أو نصف بيضاء . ويتساءل الأطباء : هل الزرنيخ الذى وضعه الإنجليز لنابليون فى طعامه حتى مات فى جزيرة سانت هيلانة فى سنة ١٨٢١ يؤدى إلى أن يتحول الشعر الأصفر الذهبى إلى أبيض أو نصف أبيض ؟ . .أو هل مات نابليون أو قتل .

أذكر أننى رأيت شعرات من لحية نابليون هذه فى متحف بمدينة هافانا بكوبا . ولم تكن هذه الشعرات ذهبية اللون . كانت بنية صفراء . . أوحمراء وكانت الشعرات رفيعة ناعمة خفيفة . . ولم يدهشنى ذلك . ولكن أدهشنى جدا عندما رأيت ملابس نابليون إنه كان قصير القامة . . لا هو عملاق ولا رأسه فى حجم الجبال ! !

إن هذه القصص ليست هى التى أعجبتنى . ولكن الذى أعجبنى هو روح الجد والجدية . . أن يكون الإنسان – كل إنسان – جادا فى عمله . وبهذه الروح تتقدم شعوب على شعوب . وتعيش حضارات وتنقرض أخرى . والحياة علم . والموت جهل !

الفراعنة أولا

كل يوم يكتشف العلم الحديث شيئًا جديدًا سبقنا إليه الفراعنة . وليس هذا استنتاجا أو تعصبا قوميا ولكنهم علماء الغرب هم الذين يتعصبون للفراعنة . ويقولون : إنه لا جديد تحت الشمس . فكل شيء قد اهتدى إليه الفراعنة . فمنذ عشرين عاما اكتشف أحد علماء الكيمياء أن التماثيل الذهبية فى الكنائس ليست كلها من الذهب الخالص ولكنها تغطت بطبقة ذهبية أو ذات تركيب ذهبي وأن أساس هذا التركيب بعض الأعشاب التى جاءت من الشرق ، أى أن أساس اللون الذهبي عصير أو مسحوق النباتات الشرقية ، وهذه عبارات عامة وليست محددة !

ولكن عندما رفعت اليونسكو معبد « أبو سمبل » اكتشف بعض علماء الكيمياء أن اللون الذهبي الذى تغطت به التماثيل المصرية ليس إلا عجينة رقيقة من مسحوق الحلبة الخضراء . فالحلبة إذا سحقت وغليت تحولت إلى عجينة . هذه العجينة استخدمها الفراعنة فى الطلاء . فكان لها هذا اللون الأصفر الذهبى الفاتح . ويظهر أن الفراعنة كانوا يستخدمون عصير البصل مع مسحوق الحلبة . وقد عرف الفراعنة هذه الألوان الجميلة الثابتة منذ ألوف السنين . وقبل أن يكتشف علماء الغرب ذلك بوقت طويل . فلم يكن الفراعنة سفهاء لدرجة أن يبددوا كل ثرواتهم الذهبية على الجدران !

وأعود الآن إلى كتاب « الصحة والأعشاب » للطبيب الفرنسى موريس مسيجيه . فى هذا الكتاب يحدثنا عن أسرار العلاج دون حاجة إلى صيدليات

أو حتى أطباء أى دون حاجة إلى الكيمياء ، يقول هذا الطبيب الفرنسى إن عبقرية الفراعنة تظهر فى أشياء كثيرة ولكن أهمها : الثوم وعسل النحل . فقد استخدم الفراعنة الثوم فى كثير من الأطعمة . والطبيب الفرنسى يقول إنه لا يوجد مرض لا يعالجه الثوم مسحوقًا أو سليما . . فالدكتور مسيجيه يقول إن كل الحمامات الساخنة لليدين أو القدمين أو المؤخرة أو المقدمة لابد أن يوضع فيها مسحوق الثوم ضمن مساحيق لنباتات أخرى . . وأن الإنسان فى أى مكان لو عرف مزايا الثوم الذى يضعه فى الطعام أو يبتلعه على الريق دون أن يضعه فى الماء المغلى لامتلأت جيوب الناس بالثوم ولأصبح يساوى وزنه ذهبًا !

ويقول الدكتور مسيجيه أيضًا إنه شخصيا لا يحب عسل النحل . ولكن ما من مرة استخدم عسل النحل مرهما للجروح ودهانًا للبشرة أو للعين أو طعاما أو للتحلية بعد الطعام إلا كانت النتيجة مؤكدة . .

ويقول إن بعض الحضارات القديمة قد عرفت مزايا البصل والخس والفجل . ومن المؤكد أنها مفيدة للأمعاء والمعدة وضغط الدم والبشرة ، والتنفس . ولكن لا يوجد نبات فى الدنيا يفوق عظمة الثوم إذا كان نيئا . وكل الأطعمة الطازجة هى الأطعمة المفيدة .

ولكن يبدو أن هذه الخضروات والفواكه قد أصبحت مسمومة . فالمبيدات الحشرية فى كل مكان . . فى الماء والهواء . وقد تسرب جزء كبير منها إلى هذه المأكولات . ولكن عناية الله قد جعلت هذه النباتات تقاوم السموم . . كما جعلت الجسم الإنسانى أكثر تشبعا بها وبالتالى أقل تأثرًا . .

ويقول : مهما كانت الخضروات والفواكه مسمومة ، فإنها أقل ضررا من كل ما تحتوى عليه الصيدليات من عقاقير أنتجها الإنسان فى ظروف صحية نقية تماما .

وإذا لم يعجبك هذا الكلام وضاقت نفسك وأعصابك به ، فمعك حق . .

وحتى لا تنكد على نفسك طول اليوم . ابتلع بعض الثوم النيىء تسترح أعصابك وتهدأ معدتك وتنفتح شهيتك لخضروات وفواكه أخرى .

قارة غرقت . .

من المؤكد أنه عاشت على هذه الأرض حضارات قديمة من أماكن مختلفة . . ولأسباب غير معروفة الآن اختفت هذه الحضارات . فالأرض على صلة بالكواكب الأخرى من ملايين السنين . والإنسان ليس هو الكائن الوحيد العاقل فى هذا الكون . هذه حقيقة علمية وليس هو أعقل العقلاء فى هذا الكون . . هذه حقيقة علمية . والعلماء يسجلون موجات صوتية تجىء من أماكن تبعد عنا ملايين السنين الضوئية . وهذه الموجات تدل على أن هناك قوى هائلة مولدة لهذه الموجات وقادرة على تعديل مسارها . وهذا لا يتيسر إلا لكائنات متفوقة التفكير . وليس بعيدا عن المنطق أن تتصل هذه الحضارات القديمة والمعاصرة والتى ترسل إلينا أطباقا طائرة ، بالحضارة الإنسانية فى مئات الألوف فى السنين القادمة الماضية أو ملايين السنين القادمة .

وعلى سطح الأرض آثار فى أماكن كثيرة تدل على هذا الاتصال . هذه حقيقة علمية مؤكدة . والعلماء من الشرق والغرب يدرسون الآن : كيف نتصل بهذه الكواكب البعيدة ونؤكد لسكانها أننا نريد الاتصال بهم أو نؤكد لهم أننا هنا وأننا نريد أن نعرف ماذا هناك .

ومن ألوف السنين يتحدث العلماء والمؤرخون عن قارة أو قارات كانت هناك ثم اختفت تحت الماء . أول من أشار إلى ذلك فيلسوف الإغريق أفلاطون . أشار إلى ذلك مرتين فى كتابين من كتبه ، تحدث عن الحياة الفاضلة فى هذه القارة وعن

الزراعة والفاكهة والصناعة والعدل والمواصلات . . ولم يكن أفلاطون يروى قصته وإنما يؤكد حقيقة تاريخية . واختلف العلماء فى مكان هذه القارة قالوا تحت البحر الذى يفصل بين اليونان وتركيا . وقالوا جنوب جزر اليونان وقالوا فى المحيط الأطلسى أو الأطلنطى . . ونظرية تقول إن قارة أطلانطس كانت فوق الصحراء الغربية جنوب ليبيا وتونس والجزائر . . وهناك ألوف الأدلة النباتية والحيوانية والفلكلورية بين أوربا وأمريكا وكلها تدل على وجود هذه القارة واختفائها وفى التاريخ الفرعونى وفى حكايات الكهنة وفى التاريخ الذى سجله هيرودوت أن الفراعنة حدثوه عن أناس نبلاء عادوا من الغرب . وأنهم من سلالة زرقاء وأنهم مختلفون عن سكان هذه الأرض . . والغرب هو قارة أطلانطس .

ومنذ ذلك الوقت وعلماء الجغرافيا والفلك والبحار والنبات والحيوان يبحثون عن هذه القارة وفى الأيام الأخيرة أعلن عدد من العلماء أنهم وجدوها . . وقبل ذلك بعشرات السنين أعلن العلماء أنهم وجدوها . وهذا يدل على أنهم يبحثون عنها ويحلمون بأن يجدوها . وسارع وتسرع عدد من العلماء المصريين وقالوا إن العلماء لم يجدوها وإنما عثروا على بقايا مدن غارقة بسبب الزلازل والبراكين . . أو أن الذى حدث هو نوع من « الانزلاق القارى » — أى انزلاق قارة بعيدا عن قارة أخرى — فغرقت بعض المدن على الشواطئ . . ومن يدرى ربما وجدنا تفسيرا لماحدث على أرضنا فى كواكب أخرى . . فى المريخ . . أو تحت سطح القمر الذى هو تابع لكوكب الأرض . ولا شك أن القمر هو أقرب المحطات الفضائية بين الأرض والكواكب الأخرى — ربما .

الحواس عاجزة

عقلك على قدك – يمكن أن تقولها لطفلك ولأكبر مفكر فى العالم . فالعقل الإنسانى لا يدرك إلا أشياء صغيرة من كل شىء . إنك تستطيع أن تدرك لون ورقة شجرة . . ولكنك بعقلك أوبإحساسك لا تستطيع أن ترى ورقة الشجرة وهي تبكى لأنك فصلتها عن أمها الشجرة . هناك أجهزة فوتوغرافية فى روسيا وأمريكا سجلت ذلك .

إنك تستطيع فقط أن تحرك الملعقة بين الطبق وفمك . . ولكن هل استطعت أن تحركها بمجرد النظر إليها . . هل تستطيع أن تحرق ثوبا بمجرد النظر إلى صاحبه – فى أمريكا ظهر أناس عندهم هذه الموهبة الخاصة . .

أنت تقرأ هذه الكلمات وأنت مفتوح العينين . . ولكن أناسا فى روسيا وأمريكا يقرءون هذه السطور بأصابع أرجلهم أو يقرءون هذه الكلمات بأصابع أيديهم . . بشرط أن تكون قد وضعت منديلا على أعينهم ، وأن تكون قد وضعت لوحا من الزجاج على هذه الصحيفة .

أنت ترانى جالسًا أو واقفًا . . ولكن لاتستطيع أن ترانى بعد أن غادرت هذا المكان ولا أن تعرف بالضبط ما الذى فعلته قبل أن أخرج . ولكن أناسا سجلتهم المعامل والأجهزة الدقيقة قادرون على أن يصنعوا لك هذا كله بمجرد النظر إلى المكان الذى كنت أجلس فيه . .

معنى ذلك !

معناه أن حواسنا العادية غير قادرة على معرفة أشياء كثيرة . فهذه الإحساسات قاصرة عاجزة . ولكن هناك بعض الناس عندهم موهبة أو شفافية فى عيونهم أو آذانهم أو أصابعهم أو عقولهم ، قادرون على أن يروا ما لا نرى وما لا نسمع وما لا نفهم . . هناك أناس قادرون على أن ينقلوا أفكارهم إلى غيرهم دون كلام . وأن ينقلوا أفكارهم إلى غيرهم على مسافة ألف كيلو متر . . إن أحد رواد الفضاء الأمريكان كان يقرأ أفكار أحد زملائه فى قاعدة الفضاء ويحرك قلمه كما كان يفعل صديقه على الأرض . . كأنه يراه !

إن عددا من الناس يؤكدون أنهم يسمعون أصواتا من الفضاء الخارجى تقول لهم : افعلوا كذا ولا تفعلوا . . وتقول لهم : إن فلانا مات قبل أن يعرف كل الناس . . وأنه فى الطريق إليك ولم يكن أحد يتوقع ذلك .

ما معنى هذا كله ؟

معناه أن العلم الحديث يريد أن يمشى وراء هؤلاء وأن يحلل ويعلل لعله أن يهتدى إلى تعميق وتعظيم القدرات الإنسانية عند كل الناس . . أو عند بقية الناس . . أو يجد طريقه للاتصال بعالم آخر وراء الحس . . موجود فعلا . هذا العالم اسمه عالم ما وراء الحس ، أو ما بعد الحس . . عالم الروح . . أو الأرواح . . إن الذى يقول ذلك ويدعو إليه ليست الشعوب التى ماتزال تستخدم الشادوف فى الرى والحمار فى المواصلات والأحجبة فى الدواء .

إنها نفس الشعوب التى دارت حول القمر ونزلت فوقه ، وتتجه بأحلامها وأعلامها إلى المريخ والزهرة — إنها شعوب تقدمت علينا مئات السنين !

ويوم أصدرت كتابى « أرواح وأشباح » قيل إنها ولمة فخمة فى عالم التخريف . . مع أننى انتقيت ولمتى من « سوبر ماركت » ضخم فخم تديره كبرى دول العالم : روسيا وأمريكا !

اللعبة الفُخرية

لا أعرف من الذى ألومه . . ولكن من المؤكد أننا أمام ظاهرة تدل على سوء الفهم . . ولا أقول الجهل . .

مثلا : أذكر أنه فى عام ٧٥ عندما منحت جامعة القاهرة الرئيس الفرنسى الدكتوراه الفخرية أتوا له بروب جامعى لكى يضعه الرجل على كتفيه . ولكن الرجل اعتذر . . ولم يفهم الناس سبب هذا الرفض . . فليس من المعقول أنه قد رفض الروب الجامعى أو الشهادة الفخرية . ولكن لابد من سبب . وهذا السبب لم يولد فى نفس اللحظة . وإنما هو سبب تقليدى – أى يتعلق بالتقاليد الجامعية التى تحتم أن يرتدى الروب كل أستاذ جامعى . كما يرتدى ملابس رجال هذه المسوح المعروفة . فقط رجال الدين . ولكن أحدا لم ينشر تفسيرا لهذا المشهد الذى اندهش له الناس عندما رأوه على شاشة التليفزيون . فكيف يحدث ذلك وعندنا كثيرون تعلموا فى فرنسا وتخرجوا فى السوربون ؟ والجواب : أنهم قد نسوا هذه التقاليد ومعها اللغة الفرنسية أيضًا !

ملحوظة أخرى : وهى الدكتوراه الفخرية التى توسعنا فى منحها لأناس كثيرين بلا مناسبات معقولة أو مقنعة . . ومن العجب أن الذين يعطون الدكتوراه الفخرية قد تعلموا أيضًا فى الخارج . وكما هى العادة قد نسوا التقاليد الجامعية ومعها أيضًا النطق الصحيح للغات التى تعلموها أو تعلموا بها .

فمن المعروف عالميا : أن الدكتوراه الفخرية ليست لقبا علميا – مرة أخرى :

ليست لقبا علميا . أى لا يصح مطلقا أن يقال د. توفيق الحكيم أو د عبد الوهاب . لأن هذا تهريج وجهل !

إننى أعرف صديقا أعطيت له الدكتوراة الفخرية فأعطاها لأحد الأطفال يلعب بها . . ومازال الطفل كلما احتاج إلى اللعب أخرجها من دولابه الصغير . وقد هانت هذه « التحية » الأدبية على صاحبها عندما قامت أجهزة الإعلام بهذا التهريج الجاهل أو الجهل التهريجى فوضعت حرف : د . . أمام الذين منحت لهم .

وإذا كان التهريج قد ارتفع إلى هذا المستوى الجامعى فأين نجد الجدية الجامعية . . هل هو التهريج الذى ارتفع مستواه أو هى الجامعة التى انحط مستواها ؟ .

وإذا كان الذين يعلموننا ينسون الذى تعلموه ، فما الذى بقى فيهم أو عندهم لكى ينقلوه إلى الآخرين . . وإذا كان الجامعيون ليسوا جامعيين ، فأين نجد التقاليد والأصول والحرص عليها واحترامها . . واحترامهم بعد ذلك .

الخدمة العامة

لم يعد هناك شك فى أن « الخدمة العامة » هى عبث عام . وفى استطاعتك أن تسأل ألوف الجامعيين الذين يترددون على المؤسسات والهيئات ولا يقومون بأى عمل غير مجرد الذهاب والاياب فلا أفادوا أحدا ولا استفادوا من أى أحد والنتيجة : سنة ضائعة عليهم وعلى مصر.

فهل هذه السنة : عقوبة عامة لأن هؤلاء الشبان قد تخرجوا فى الكليات والمعاهد ؟ هل هى « فرملة » هؤلاء الشبان عن المزاحمة فى الطريق العام ؟ هل هى إعطاء فرصة لشبان آخرين أن يجدوا لهم مكانا على سلم الأتوبيس والترام والمصاعد

والوقوف على الأرصفة ؟ هل الخدمة العامة مجرد « محلك سر» لأناس كلهم حيوية وشباب والبلد ليست فى حاجة إليهم ؟ هل لأن هناك فائضا هائلا من هذه القوى الحيوية وأننا لا نعرف ما الذى نفعله بها ؟ هل لأننا لا نفكر جديا فى الاستفادة منهم ؟ هل انتهت كل المشاكل وانحلت كل العقد ولم نعد فى حاجة إلى مزيد من الأيدى أو العقول لدفع هذه السفينة « الموحولة » التى هى حياتنا الاجتماعية والاقتصادية ؟

شيء عجيب أن نرى بوضوح أن هذه الخدمة لا هى خدمة خاصة ولا عامة ، مع أننا فى حاجة إلى إنجازات حيوية فى مصر ، مثلا : أولا وآخرا وقبل أى شيء آخر فى مصر : محو الأمية !

كيف نواجه هذه الحقيقة : إن ٧٠٪ من الذكور أميون و ٩٠٪ من الإناث أميات ، كيف نعرف ذلك ونسكت . كيف لا تكون هى بداية ونهاية أية خدمة عامة يقوم بها شباب مصر من أجل مصر. كيف لا تكون الخدمة العامة التى تستغرق عاما كاملا قادرة على محو أمية مائة أو ألف من المواطنين . . وأن يكون امتحان هؤلاء الأميين ونجاحهم هو الثمرة المؤكدة لمن يريد أن يخدم مصر.

إن هذا الجهل الذى انتشر بين الناس هو المسئول عن الكوارث الفادحة فى حياتنا . . هو هذا الانفصال والانفصام بين الذين تعلموا وهم أقلية وبين الذين لم يتعلموا وهم أغلبية ساحقة لكل أمل وكل مشروعات وكل مال ننفقه فى الشوارع وفى القنوات وفى المزارع وفى العلاج وفى الدفاع . . لو كان هذا الشعب متعلما لنقصت تكاليف كل شيء . . ولما احتجنا إلى هذه الجهود المضنية لإقناع الشعب بأبسط حقائق الحياة الجسمية والنفسية والاجتماعية .

صحيح أن الأمة الجاهلة أسهل لمن يحكمها — ولكن هذه عبارة قالها سعيد باشا . ولكن سعيد باشا مضى وانقضى . ولم تعد « السهولة » و « الانصياع »

و « الاستسلام » مما يشرف الحاكم والمحكوم فقد دفعت مصر غاليا جدا لأن الأغلبية قالت : نعم للظالم وقالت نعم للجبار .

والحضارة ليست أن يختار الإنسان بين أن يقول : نعم ، وإن يقول : لا ، ولكن أن يقول نعم لسبب ما وأن يقول لا لسبب آخر . وأن يختار حرا ما يريد لحياته ولمستقبله . .

إن مصر – مثلا واحدا – تدفع ملايين الجنيهات كل سنة على عقاقير ليست فى حاجة إليها . وسبب ذلك أن الشعب جاهل وأنه يعالج نفسه من المرض بنفسه . . هو الذى يختار من الصيدليات المفتوحة المستباحة كل مايراه أجنبيا ويبتلع ولا يهم ماذا تكون النتيجة . فلا قيد عليه أو على الصيدليات . . وملايين الجنيهات تدفعها للمضادات الحيوية لأنها لم تعد ذات أثر فعال . لماذا ؟ لأن الناس الجهلة يملئون بها معداتهم وعروقهم بلا سبب طبى سليم . ولا أحد يقول للناس : لا . . فالمهم إرضاء الناس سواء كان ذلك ضارا بهم أو بالدولة .

إن الشعب المتعلم هو الذى يرفض أن تشترى له الدولة بملايين الجنيهات بندقا ولوزا وحوزا وقمر الدين فى العيد . لأن هذه كماليات لا تليق بدولة فى حالة حرب . . وإذا حاولت الدولة أن تسد فمه . فيجب أن يفتح فمه ويرفض هذا العبث ولكنه لا يرفض ذلك لأنه جاهل لا يعرف الصالح العام والصالح الخاص

ولكن لأن الأغلبية الساحقة جاهلة . . فكل شىء جائز . حتى خراب مصر من شباب مصر !

عند أصابعه

القليل من المعلومات خطر ، ولكن هل هناك إنسان عنده معلومات كثيرة لدرجة أنها لا تصبح خطرة عليه أو على غيره . .

إننا عادة نبعد الأطفال عن اللعب بالكبريت . إننا نخاف عليهم ونخاف منهم أن يحرقوا أنفسهم وغيرهم . وهذه هي المعلومات القليلة الخطيرة على الطفل وعلى الناس . .

ولكن ما الذى نقوله على الذين يملكون مئات القنابل الذرية وألوف الأسلحة النووية . . إن هذه ليست معلومات قليلة إلى هذه الدرجة . ولكن فى كل مرة يتحدث العالم عن السلام تجىء هذه العبارة : فمن يدرى ربما حدث خطأ . وكان من نتائج هذا الخطأ أن انطلقت القنابل النووية لتدمير جانب من العالم . فيرد الجانب الآخر . . وتتلاشى الحضارة الإنسانية .

أو تجد هذه العبارة : من يدرى ؟ ربما أصدر رجل مجنون قرارا بإبادة الإنسانية كلها !

والمعنى : أن هذه الأسلحة التى هى قمة العلم التطبيقى الحديث من الممكن أن يخطئ إنسان واحد فيضغط على زرار . وينطلق الموت فى كل اتجاه . .

إذن هو زرار واحد أمام شخص واحد . وقد يكون هذا الشخص مجنونا .

فكيف نترك الدنيا كلها عند أصابع شخص واحد ؟ كيف نترك مصيرنا كله لنزوة واحد من الناس معرض لأن يصاب بالتعب واليأس . أو السكر والعربدة . .

وفى إحدى اللحظات يهوى بيده أو بجسمه على زرار فيقضى على كل ما هو إنسانى أو حتى على هذه الكرة الأرضية . .

إذن فهذا العلم الغزير ليس يعصمنا من الخطأ . لأننا فى النهاية نضعه فى أيد قليلة . . ثم فى يد واحدة . فكان هذا العلم الكثير ، كالعلم القليل ، خطير أيضا .

فهل هى كثرة العلم أو قلة العلم التى تجعله خطيرا ؟ هل عدد الكبريت فى يد طفل مثل القنبلة فى يد جندى . . أو الترسانة النووية فى يد الرئيس الأمريكى أو الرئيس السوفيتى ؟ من المؤكد أن هناك موانع كثيرة قبل أن يتمكن حاكم كبير من إصدار قرار بإبادة نصف العالم . . ولكن حدث أيضا فى مرات كثيرة أن سقطت القنابل الذرية دون أن تنفجر . . وحدث كثيرًا أن سرقت قنابل وسرقت مواد مشعة . . ويحدث الآن أن دولا متوسطة وصغيرة تنتج لحسابها قنابل ذرية دفاعًا عن النفس وبذلك أصبحت أعواد الكبريت فى متناول الصغير والكبير . وربما كان انتشار أعواد الكبريت هو الذى جعل الخوف منها عاما . وفى نفس الوقت جعل الشعور العام بالأمان أكثر . . فلم تعد الدول الكبرى وحدها التى تملك الإرهاب أو فرض القوة بالإرهاب النووى . .

ولكن – مع ذلك – ليس هناك أمان لأحد أو من أحد . . فمهما كانت المعلومات كثيرة فهى قليلة جدا إذا قورنت بالذى لا نعرفه من أى شىء . . وحتى إذا كانت المعلومات كثيرة ، فإن النفوس صغيرة . ومايزال الإنسان طفلا يلعب بالنار . . ولم يتردد الإنسان وهو يخيف غيره أن يحرق نفسه أيضًا . . فعلت ذلك كل الدول . . وقديما قال شمشون الجبار وهو يهدم المعبد : لينهدم المعبد فوقى وفوق أعدائى أيضًا :

وكذلك نفعل جميعًا عند الغيظ الشخصى ، أو الضيق القدمى !

مبادئ النحو

من واجب مجمع اللغة العربية أن يخاف على اللغة العربية . وأن يقومها إذا استطاع . . وهو لا يستطيع أن يقوم لغة الملايين . وإنما يقوم لغة العشرات من الكتاب الذين يؤثرون فى الملايين .

ومن المؤكد أن لغتنا العربية ليست قويمة ومن الواجب أن تكون قويمة . فالذى تنشره الصحف مثلا : هو أسهل عبارة يمكن أن نخاطب بها ملايين الناس من كل المستويات التعليمية والعلمية . وهى لغة سريعة ولذلك ففى أثناء السرعة تتساقط الأفعال وعلامات الترقيم والإعراب ، ولاننا حريصون على سرعة العبارة ، فإننا (ننحت) الألفاظ التى نراها مناسبة لنا فى الوقت الضيق الذى يتاح لنا أن نكتب أو نترجم فيه . وكثير من المصطلحات العلمية والسياسية تجىء بها وكالات الأنباء ومن الضرورى أن تنقلها الصحف وتنقلها بسرعة الآلة الكاتبة التى تكتب والتى تطبع والتى توزع والتى يركبها القارئ إلى بيته أو إلى عمله . .

وإذا كانت الصحف تحرص على السرعة ، فإن كل شىء يحاول أن يقلدها أو يجاريها ، أو يتفادى خطورتها . . فالذى يتفادى السيارة المسرعة ، يجب أن يكون التفادى نفسه أسرع من السيارة . . وهذا ما يفعله الصحفيون . . ويفعله الإذاعيون ، وأكثرهم صحفيون . .

وإذا كانت بعض حيل الإضحاك الفنى أن يتلاعب الممثل بالألفاظ ، وأن ينقل ذلك إلى صغار الناس ، فإن التلاعب سوف يصبح أسلوبا فى الكلام . .

أو الاستخفاف باللغة وقواعدها سوف يصبح من القواعد الجديدة فى هدم اللغة وتحريف اللسان العربى .

إن مجمع اللغة العربية محق فى مخاوفه ، ولكنه مبالغ فى هذه المخاوف أيضًا . فالناس ليسوا بهذه الدرجة من (السلبية) أو ليسوا عجينة يشكلها أراجوزات المسرح أو الإذاعة . . ولكن الناس يرون الأراجوز ويضحكون عليه . . ولكنهم لا يذهبون إلى أكثر من ذلك ، ويذهبون إلى المسارح ويتمزقون من الضحك على الممثلين . . ويكون هذا التمزق نوعا من العلاج والتفريج . . وبعد ذلك يذهب كل شىء . . تذهب (الألعاب اللفظية) . . وتبقى ذكراها فقط . . ويخفى الناس وجوههم فى الصحف التى لا تحرص فى المقام الأول على سلامة العبارة – وهذا هو الخطر الذى يجب أن نتنبه إليه فالصحف مدرسة الشعوب . وكتابها يقتدى بهم الناس . . وليس من العدل أن يلوى ألسنة الملايين لأنه عاجز عن أن يكون قويمًا .

إن حرصنا على عروبتنا ولغتنا وقوميتنا يحتم علينا جميعا أن نقرأ مبادئ النحو والصرف ، قبل أن ننشر بين الناس مبادئ هدم النحو والصرف والعروبة .

من اليوم

نشرت صحيفة « التيمس » البريطانية مقالا لأحد الكتاب . وقد جاء فى المقال أنه رد على فلان « الخبير » فى الشئون الصحية . . والمقال من أوله لآخره كلام بالعقل ، صحيح أن الكاتب له وجهة نظر مختلفة عن وجهة نظر هذا « الخبير » . . وذهب الخبير إلى القضاء يتهم الصحيفة الكبرى بأنها أهانته عن عمد . وذلك بأنها نشرت كلمة « الخبير » بين قوسين . وفى ذلك مساس به وتعريض باسمه وسمعته كأنه ليس خبيرا . ووقف القضاء إلى جانب الخبير . ودافع رئيس التحرير عن نفسه وعن

صحيفته قائلاً : إنه لم يقصد ، ولا أحد ، الإساءة إليه . . وأن الكاتب عندما وضع القوسين حول هذه الكلمة كان يقصد إلى تأكيد هذا المعنى ، ولفت النظر إليه . . ولم يقتنع الخبير ولا المحكمة . . ورفعت الجلسة ليعاود رئيس التحرير الدفاع عن نفسه أو دفع تعويض مالى ضخم !

والإهانة جاءت من أن الرجل خبير بالفعل وعنده مؤهلات علمية تثبت ذلك . . وليس من حق أحد أن يشكك فى قيمته أو يعرض بخبرته . ولذلك فالقضاء يقف إلى جواره والرأى العام والصحافة كلها أيضًا !

وهذه هى الأصول والتقاليد والقيم الإنسانية . ولكن أين هذا مما تنشره الصحف عندنا فى مصر أو فى العالم العربى . إن الصحف تصف المتهمين بأنهم مجرمون وسفاحون ، قبل أن يصدر القضاء حكمه . إن هذا مستحيل أن يحدث فى أية صحف أوربية أو أمريكية . ومن حق المتهم أن يقاضى الصحيفة وأن يكسب ما يشاء من المال تعويضا عما لحقه . ولو نشرت صحيفة بريطانية أن (المجرم) فلان قد استجوبه القاضى ، ثم حكمت المحكمة بأنه مجرم حقيق . لوجب على الصحيفة أن تدفع له تعويضًا يصل إلى ملايين الجنيهات – مستحيل أن يحدث ذلك . . ولكن أقول (لو) ! !

ويوم نكتب تاريخ الصحافة أو تاريخ القضاء فإن صفحات كاملة سوف تنشر عن قضايا اتهمت فيها الصحافة أناسا وقفوا أمام القضاء بأنهم لصوص ومهربون وتجار ذمم ثم جاء القضاء فبرأهم . . واكتفى هؤلاء الأبرياء بحكم القضاء ، ولم يقاضوا الصحف – منتهى الظلم . .

ويحدث كثيرا أن تنشر الصحف أحكاما خاطئة ، أو معلومات كاذبة عن بعض المواطنين ، ولا تنشر فى نفس المكان وبنفس المساحة تصحيحا أو اعتذارا عن هذا الخطأ – والصحف لا تنشر رد الاعتبار إلا نادرا جدا ! !

إنها مسألة أخلاق أو أخلاقيات لها قوة القانون . والمسافة بيننا وبين هذه التقاليد الراسخة لحماية أى مواطن من الذين هم أقوى منه . ماتزال بعيدة جدا .

مسح ذاكرة

غلطة ارتكبتها الإذاعة والتليفزيون . هل سببها ضرورة اقتصادية أو أنه إهمال . على كل حال هى غلطة وعيب لا يتكرر . فقد حدث منذ سنوات أن صدر قرار ما من شخص ما بمسح كثير من الأشرطة فى الإذاعة وفى التليفزيون .

ومسح الأشرطة إجراء عادى . ولكن الذى يجعله غير عادى أن هناك « مواد » هامة سجلت على هذه الأشرطة . بعض هذه المواد لها قيمة تاريخية . ولذلك يجب أن نحتفظ بها فى مكتبات الإذاعة والتليفزيون . تماما كما احتفظنا بأشرطة الشيخ محمد رفعت صاحب الصوت الجميل الجليل . أوكما احتفظنا ببعض المسلسلات الشهيرة مثل ألف ليلة أو بعض التمثيليات أو المسرحيات أو بعض الأفلام القديمة التى نعرضها من حين إلى آخر . . أو بعض المباريات الهامة أو الدولية فى كرة القدم . أوكل الأغانى القديمة .

وقد سمعت حقائق أفزعتنى أرجو ألا تكون صحيحة . مثلا سمعت أن تسجيلا تليفزيونيا مع الأستاذ العقاد قد مسح وأن تسجيلا مع المؤرخ عبد الرحمن الرافعى أيضًا لم يعد له وجود وأنا أذكر أننى تعبت فى إقناع الرافعى بأن يذهب إلى التليفزيون . وبعد ذلك كان الرجل سعيدا جدا بأن يواجه الكاميرات وأن يتحدث .

وكان الرجل طيبا صافيا وظهرت منابع تفكيره الأخلاقية فى حديثه مما يلقى ضوءا على فلسفته فى تسجيل التاريخ . . وفى تسجيل العقاد . لم يكن الصوت واضحًا . ولا كانت مخارج ألفاظ العقاد . ولكنه كان صورة بارزة لشخصية العقاد

وأستاذيته وفى نفس الوقت بساطته وتبسطه أيضًا .

وسمعت من يقول لى أن برنامج الأدباء مع طه حسين الذى أعددته من سنوات يذاع فى البلاد العربية ويقال أنه أذيع أخيراً فى مصر.

وقد كان هذا البرنامج بالذات مسئولا عن قرارات اتخذها الرئيس عبد الناصر غيرت حياة بعض الذين شاركوا فيه . . وفى هذا البرنامج أيضًا صورة تذكارية مع عميد الأدب مع أبناء وخلفائه من أدباء مصر . وهى ككل الصور التذكارية ليست متناسبة الأطراف أو العناصر ولكنها صورة حتى لا ينساه أو ينسانا الناس !

ولا أعرف بالضبط كم عدد الأشرطة التى تم محوها . . ولكن عملية المحو هذه هى « محو لذاكرة الإذاعة والتليفزيون » . . وأنا أخشى علينا من النسيان . فهو البئر العميقة القاسية التى تتفادى كل الشعوب أن تقع فيها فلا يكون لها ماض ولا تكون لها علامات طريق . .

وأرجوا ألا يتكرر ما حدث ، أيا كان سبب ذلك . . فيكون فقدان الذاكرة هدما لنا بأيدينا وتبديدا لأموال وجهود يجب أن تبقى لنا ، وتبقى بنا !

إرضاؤهم صعب

من هو القارئ؟ من هو المستمع للإذاعة والمتفرج على التليفزيون ؟ . . إنه واحد لا نعرفه ، ولا نعرف بالضبط طبقته ولا تكوينه النفسى ولا العقلى ولا مزاجه الشخصى . ولكنه مواطن من حقه أن يستمتع وأن يستفيد .

وأساس الخلاف بين المسئولين عن الرأى العام وتكوينه هو : المتعة والفائدة ؟ ما هى نسبة المتعة إلى الفائدة . كم مساحة الموضوعات الممتعة والموضوعات المفيدة علميا وتاريخيا . أوكيف يمكن أن يتحقق الشيء المثالى الممتع والمفيد معا .

لابد أن يدخل فى حساب كل من يواجه الناس أنهم متعبون . . عملوا حتى أرهقتهم الحياة ويريدون أن يستريحوا فى بيوتهم وأن نقدم لهم ما يريحهم وينعشهم ويفيدهم ويعينهم على دنياهم . . اليوم وغدا .

والقارئ والمتفرج كلاهما يمل بسرعة ولذلك يجب أن ندركه قبل أن يتثاءب وتمتد يده إلى شىء آخر . ولهذا فالمادة التى نقدمها له يجب أن تكون سريعة وواعدة : أى أنها تعده بشىء يرضيه فورا ولذلك يجب أن تكون الموضوعات قصيرة . . سريعة . . متنوعة .

ولأننا لا نعرف بالضبط من هو الذى يقرأ أو الذى يتفرج . . ولأننا لا نعرف مزاجه فإننا يجب أن نقدم كل ما نستطيع . وهو مرة يجد ما يريد ومرة لا يجده ولكننا نحاول دائمًا أن نقدم ما نتصور أنه محتاج إليه . ونحن نعتمد على قاعدة واحدة هى : أننا مخلصون . . وأننا نحاول . ولابد أن يلتقى كل الناس عندما تصبح ثقافتهم متقاربة . وكل أجهزة الإعلام تحاول أن تخلق الثقافة المتقاربة بين الناس . وبذلك يسهل التفاهم والتخاطب والقناعة فى النهاية . وهناك فرق كبير بين خلق ثقافات متقاربة وبين جعلها ثقافة واحدة . وهذا هو الإرهاب الفكرى . أو الاستبداد العقلى عندما نلغى التنوع فى عقول الناس ونصبها فى قالب واحد . كأن الناس لهم عقل واحد وملايين الأجساد . . وهذا لن يكون . . فالناس مختلفون . وإذا أحس الناس أنهم متشابهون فى ملابسهم وفى أمزجتهم ، فإنهم يثورون ويملون ويتمردون ويحرصون على الاختلاف والتنافر والعدوان على الوحش الإعلامى الذى جعلهم حيوانا واحدا !

ولهذا كان إرضاء الناس جميعا شيئًا صعبا . فالذى يعجب هذا لا يعجبك أنت . . والذى يعجبك بعض الوقت لا يعجب غيرك طول الوقت . . ومحاولة إرضاء كل الناس ، جعل الصحف والإذاعة والتليفزيون تتجه إلى كل الناس .

والإذاعة أكثر تنوعا من التليفزيون . . والتليفزيون تكوينه الفنى محدود : قناة أو قناتان . ولكن بعد سنوات سوف يكون تليفزيون البلاد الشقيقة والمعادية فى متناول كل الناس . سوف يشاهد الناس فى مصر برامج إسرائيل وإيطاليا وفرنسا وأمريكا وبريطانيا وسوف يرتبط العالم كله بالتلستار . . هنا فقط يكون التليفزيون متنوعا مثل الإذاعات المحلية والعالمية . . وهذا التقارب يحتم علينا أن نجود برامجنا وإذاعاتنا وصحفنا لأن المواطن المصرى واقع تحت إغراء شديد من كل جهة . وهذا هو (البعبع) الذى يخيفنا من المستقبل . .ولكنه من الوجب أن نخاف حتى نقدر على أن نطمئن الناس !

الردة أصح . .

الذى نسميه (الغريزة) عند الحيوانات هو فى الحقيقة (حكمة الله) قد أودعها هذه الكائنات التى لا تستطيع أن تفكر . تماما كما نضع نحن المعلومات الصميمة فى العقل الالكترونى ثم نطلبها عندما نحتاج إليها . فالعقل الالكترونى لا يفكر دائمًا، وإنما يعيد إلينا ما أودعناه فيه . . وهذه الغريزة هى فلسفة الكون قد تركها الله فى رءوس الحيوانات والنباتات .

مثلا : نجد الكتكوت الصغير عندما يخرج من البيضة يتجه إلى الأرض ينقر ويبتلع بعض الرمال أو بعض الملح على الجدران . . والتفسير لذلك هو أن هذا الحيوان يبحث غريزيا عن بعض الملح . . ويبحث فى نفس الوقت عن مادة خشنة لمعدته وأمعائه .

إن طبيب الأطفال يطلب من الأم أن تضع بعض (الردة) — وهى قشور القمح والشعير والذرة فى طعام الطفل الصغير ، وهى ضرورة للحركة فى داخل

الأمعاء . وهى فى نفس الوقت تجعل عند الطفل الصغير نوعا من اللين . .

ويذهب الأطباء الباطنيون إلى أبعد من ذلك . فالمصران الأعور والتهابه وضرورة استئصاله ، هذا مرض جديد فلم يكن ذلك معروفا من ألوف السنين والسجلات الطبية تحدثت عن أول عملية مصران أعور أجريت كانت فى بريطانيا سنة ١٨٤٠ . وقبل هذه السنة لا نعرف أحدا أجراها أو تحدث عن هذه الزائدة الدودية . ولكن لماذا ؟

إنه نفس السبب . نحن عادة نتناول الأطعمة الناعمة اللينة ، الدقيق الناعم والحلوى السكرية المصنوعة من الدقيق والسمن ونشرب وراءها الكثير من الماء . وتكون النتيجة أن الطعام يتحول فى الأمعاء إلى عجينة متماسكة تندفع بصعوبة فى داخل الأمعاء ذات الحركة الدودية . وكثيرا ما كان الضغط على الطعام بالقرب من الزائدة الدودية فتنفذ إليها ، ومنها تتكون أنواع من البكتريا . وقد يؤدى ذلك إلى إدمائها . . وبقاء هذه البكتريا طويلا يصيب المصارين بالقرحة . . أو يؤدى إلى إفساد فى نمو الخلايا أو خلل فى نموها . .

ولو أحصينا عدد العمليات التى أجريت للزائدة الدودية فى الخمسين عاما الماضية لبلغت الملايين . . ولنفس السبب : أن الطعام يخلو من (الردة) . . هذه الردة التى تجعل الطعام أقل تماسكا وفى نفس الوقت تعاون على حركته فى الأمعاء . . فإذا سهلت الحركة لم يصب أحد بالإمساك . . وإنما إذا تماسكت العجينة وانحشرت وتكثفت كان من الطبيعى أن يشكو الإنسان من الإمساك ومن ضرورة إزالة الزائدة الدودية .

ولأن الردة ليست ميسورة بشكلها الذى لا يؤذى جدران المعدة والأمعاء ، فقد أفلحت شركات الأغذية فى تحويل الردة الخشنة إلى ردة ناعمة . . ويمكن لأى إنسان أن يأكلها خبزا أو يضعها فى الشوربة . . بمعدل عشر ملاعق طعام يوميا . .

وإذا وجدت بعض الناس يفضلون الوجه الخشن من الرغيف ، فهذا هو الأصح . .

ومن حكم الشعوب البدائية أن المريض الذى يشكو من الإسهال ينصحه حكيم القبيلة بأن يسف بعض التراب الجاف — أى يعمل تماما كالكتكوت الصغير .

وأنت حر تماما فى أن تكون كتكوتا تسف التراب ، أو إنسانا يسف الردة من أجل أمعائك ومعدتك !

الحكيم لقمان . .

من الأمثال الشعبية واحد يقول : من عاش بالحكمة عاش بالمرض . أى أن الذى يستخدم الحكمة — أى الطب — فى كل متاعبه فإنه سيظل طول عمره مريضا . لأن العقاقير تضعف مقاومة الجسم للأمراض . أو بعبارة أخرى : أن هذه العقاقير تشبه القوات المرتزقة التى تدافع عن الجسم . فى حين أن الجسم به قوات مدخرة فى إمكانها أن تدافع وأن تصد وأن ترد العدوان — هذا إذا أعطينا للجسم الإنسانى هذه الفرصة .

ونحن أطفال كانت أمهاتنا يتركننا نقع على الأرض . ويتركننا نبكى ونصرخ . . ويرين فى ذلك فرصة لنكتسب قوة الحبال الصوتية واتساع الصدر ومتانة العضلات . .

ولكن عندما نكبر فإننا نسارع برد العدوان بالعقاقير . وتتراكم رواسب هذه العقاقير فى الكليتين أو فى الدم . . أو فى المعدة . . ويمضى الوقت ونحن لا نعطى للجسم هذه الفرصة للدفاع عنا . حتى يجىء وقت . ويكون ذلك متأخرا جدا . .

ندفع فيه الحساب الغالى . . أما هذا الحساب فهو أن هذه العقاقير لم تعد تجدى . وأنه من الأفضل أن نترك الجسم يدافع عن نفسه . . ولكن الجسم يكون عاجزا تمامًا عن عمل شىء !

والعقاقير تشبه الصابون : فالصابون ينظف الملابس ولكنه فى نفس الوقت يذيب خيوطها !

والاتجاه الحديث فى الطب الآن هو الإقلال من استخدام المستحضرات الكيميائية لأنها سامة إلى حد ما . ثم سامة بعد ذلك . وليس هذا الاتجاه معاديا لصناعة الأدوية أو ليس اتجاها اقتصاديا وإنما هو اتجاه طبى صميم . وينصح الأطباء بالعودة إلى الأعشاب أو الوصفات البلدية . أو المنتجات الطبيعية من الفواكه والخضراوات .

ولا يوجد عقار واحد ليس له أصل نباتى . أو ليس مستخرجا من أحد الأعشاب بما فى ذلك الأسبرين الذى لا يزال ساحر الآلام فى العالم .

وقد كنت أتحدث مع الدكتور محمود محفوظ وزير الصحة . أو على الأصح كان هو الذى يتحدث ، وهو رجل فصيح ، عن الأعشاب الطبية فى مصر . وكيف أن الله قد أعطى مصر الكثير منها . وأننا نستطيع أن نكسب مئات الملايين من زراعة هذه الأعشاب فى بلادنا والاستفادة والاتجار فيها أيضًا . بعض هذه الأعشاب إذا استخلصناها فإن الجرام الواحد يساوى مليون دولار – هو الذى يقول ولابد أنه على يقين من هذا الرقم !

وبدلا من أن يذهب الإنسان إلى الصيدلية عليه أن يذهب إلى محال العطارين ويسأل البائع الذى ليس صيدليا ولا طبيبا . وما يوصى به العطار ، هو بالضبط ما أوصى به الحكيم لقمان من ألوف السنين – وهو شفاء من كل داء !

قالوا . . .

تقديرك لنفسك لن ينافسك فيه أحد !

أخطاؤنا سببها : نحن نفكر فيما يجب أن نسلم به ، ونسلم بما يجب أن نفكر فيه !

القانون والعدل خلقهما الله معا وباعد بينهما الإنسان .

معدة رمضانية

ما هذا الذى نجده أمامنا فى رمضان المعظم – أقصد هذا الذى نأكله بعد أذان المغرب ؟

نشرب الشاى الساخن . وبعد ذلك نشرب الماء المثلج . . نأكل الطورشى الذى هو مزيج من الملح والشطة والعفونة والألياف والذى يدعوك إلى مزيد من الماء المثلج . . ثم الملوخية الساخنة التى لا طعم لها إلا إذا أكلناها بالخبز المنفوخ . ووراءها بعض الماء المثلج لأن الطورشى قد انتفش فى المعدة وبدأ يتحرك فى اتجاه فتحة المعدة . ومع الملوخية الأرز . فالأرز ضرورى جدا حتى لا نسمع صوت الملوخية والماء والشوربة ونحن نهتز يمينا وشمالا . والأرز يقوم بردم المعدة . أو تحويلها إلى عجينة متماسكة نسبيا . وبعد ذلك لابد من الفول المدمس . إنه يحلو فى رمضان . فلا رمضان بلا فول بالزيت والليمون والخل . . أو بالزبدة والبيض . . أو بالزبدة والبيض واللحمة المفرومة . . أو الفول بالفحم . لأن الفحم يجعل للفول طعم اللحم المشوى .

وبعد دقائق معدودات يكون الصائم قد شبع . ولم يستغرق الإفطار ثلاث دقائق . وتجىء الكنافة بعجينتها وسكرها وسمنها . وهى أيضًا مثل الطرشى لابد من تخفيف حدتها بالماء المثلج . مزيدا من الماء ومن عادات الصائمين فى رمضان أن

يشربوا الشاى بالنعناع الأخضر.. وبعضهم يفضل أن يأكل القطايف مع الشاى.. أو الكعك مع الشاى.. إنها عادة قديمة. ورمضان كله عادات وتقاليد..

إذا لم تكن قد تصورت ما فعلته أنت أو أى صائم وإذا كانت عقليتك علمية تجريبية ففى استطاعتك أن تأتى بحلة.. وأن تفرغ فيها ما يعادل كل ما أكلته وشربته. ثم هز هذه الحلة. وانظر إلى هذه الكميات الهائلة التى دخلت معدتك. فإذا نظرت ودققت النظر فقل لى: ما الذى تصلح له أنت بعد كل هذا الذى حشرته فى معدتك؟ كيف يمكن أن تؤدى أى عمل.

ليس من الضرورى أن يجيب أحد عن هذا السؤال. فالمفروض أن تنشغل عن معدتك الآن. واعط أذنيك وعينيك للإذاعة والتليفزيون. واضحك. وسوف يقوم الضحك بهز معدتك وتقليب ما فيها – هذه هى الحكمة وراء برامج رمضان! والضحك هو أرخص من أقراص منع الحموضة التى اختفت من الصيدليات وحبوب تقلصات المصران الغليظ.. إلخ..

وكل سنة وأنت تشكو الجوع قبل المدفع وتشكو التخمة بعده بدقائق. وكل سنة وأنت تعرف أن الاعتدال هو أحسن دواء، ولكنك لن تفعل ذلك!

قالوا:

لى أخطائى: ولكن ليس الاعتراف بالخطأ واحد منها!

الضعيف له سلاح واحد: أخطاء الأقوياء!

عندما رأت حواء صورتها فى الماء، اتهمت آدم بأنه يعرف امرأة أخرى!

لست طبيب نفسك

أنا واحد من الملايين الكسالى الذين لا يذهبون إلى الأطباء كلما أحسوا بوجع فى مكان ما . وليس بسبب أننى لا أعرف الطريق إليهم ، فأنا أعرف منهم الكثيرين الممتازين والحمد لله . ولكن سبب ذلك أن أوجاعى قد عرفها الأطباء وشخصوا لها الدواء . ولذلك فأنا أقوم بتكرير الدواء من تلقاء نفسى . وهذه غلطة لأن الأوجاع تتشابه فى الجسم الإنسانى ، ولكن أسبابها تختلف . بل إن الأعراض تتشابه أيضًا ، ولكن مصادر الألم تختلف . وغلطة أخرى أن الدواء إذا وصفه الطبيب ، فإن هذا الدواء يفقد مفعوله بعد تناوله فترة طويلة . .

هذا إذا كان الإنسان يتناول دواء واحدا ، ولكن من النادر أن يحدث ذلك . فالإنسان يتناول أكثر من عقار فى وقت واحد ولأسباب مختلفة كأن يصاب الإنسان بصداع وإمساك وأرق وحموضة . ومن الممكن أن يكون ذلك كله بسبب الإمساك . ومن الممكن أن يكون بسبب الأرق وقلة النوم ، ولكن من الذى يستطيع أن يفصل فى هذه الأعراض . لابد أن يكون الطبيب ، أو تكون أنت فى غياب الطبيب ، أو بسبب حرصك على أن تتصرف من تلقاء نفسك كأنك طبيب ، أو كأنه لا يوجد طبيب على الطرف الآخر من التليفون .

وفى يوم قررت ألا أتناول أى دواء ، مهما كانت الأسباب وسوف أجرب كيف يكون الإنسان طبيعيا . أى يعتمد على قواه الذاتية . فالمعدة يجب أن تدبر حالها والدماغ يجب أن يعتدل فوق الكتفين . ولن أعطى أية غدة من الغدد عكازا تتوكأ

عليه ، من أجل القيام بوظيفتها ومساندة بقية الغدد الأخرى .

وأحسست كأننى كنت أمشى على عكاز ، وألقيت بالعكاز ، وكأننى كنت أضع منظارا طبيا ، وكسرت المنظار ، وكأننى كنت أضع سماعات على أذنى وخلعت السماعات . . وأنا الآن مثل الطائرة الشراعية اعتمد على تيارات الهواء . . ولست طائرة عادية لها محركات وجناحان وذيل وطاقم من الطيارين والمساعدين . . فجأة وجدت نفسى وحدى ، مجردا من أية مساعدة خارجية .

فماذا حدث !

لاشىء قد حدث . لاشىء إلا خوفى من أن يحدث أى شىء . ولم يقع أى شىء . وظللت أرقب نفسى لا شىء . وأتوقع أن يحدث شىء ما فى مكان ما لسبب ما . ولم يحدث فى العين أو فى الأذن أو فى المعدة شىء ومددت يدى أقرأ وأكتب . وأروح وأجىء . لا شىء .

واسترحت إلى حالى وقلت : كل شىء طبيعى . وأحسست بالسعادة لما حدث . ومددت يدى لا شعوريا إلى بعض الأقراص وابتلعتها . ونسيت فى غمرة الفرح هذه أن هذه التجربة لم تستغرق سوى ساعة واحدة .

ولكن أهم ما خرجت به هو : إن عدم تناول الأدوية عادة سيئة ، وأن تناولها عادة أسوأ ؟

اضبط نفسك

بمناسبة وجود الدكتورة أنا أصلان فى القاهرة يتحدث الناس عن الصحة وعن طول العمر . ويختلف الناس فى الأسباب . أسهل الأسباب أن يقال أن الأعمار بيد الله ولكن الناس لا يتوقفون عند هذا السبب . وإنما يبحثون عن الأدوية التى تجعل الإنسان أصح وأطول عمرا .

والناس فى ذلك مدارس متعددة التفكير. أناس يرون أن الصحة كالمرض سببها الأكل والشرب . فحياة الإنسان وموته فى معدته . والذى يأكل كثيرا يمرض كثيرا . والذى ينتقى الطعام القليل يصبح أحسن جسما وأهدأ نفسا .

وأناس يقولون الحالة النفسية هى السبب . والطعام له أثر على الحالة النفسية . أو الحالة النفسية لها أثر على الطعام . وصاحب المزاج الهادئ هو صاحب المعدة السليمة . وصاحب الأعصاب الحادة هو صاحب المعدة المريضة وقرحة المعدة وقرحة الأمعاء والضغط والانهيار والذبحة والجلطة .

وأناس يقولون : إن المرض معناه اختلال فى نظام الجسم . ولذلك فالنظام هو صحة الجسم . فالذى له مواعيد معروفة فى الأكل والشرب والنوم والعمل هو أميل الناس إلى الصحة الجيدة . وأكثر الذين يمرضون تتحسن صحتهم لأسباب من بينها أن هذا المريض قد عرف النظام فى الأكل والشرب . لأن الدواء يجب أن يؤخذ فى مواعيد محددة . فانتظام الأكل هو تنظيم للغدد والإفرازات فى الجسم كله . ويكفى أن ننظر إلى الرجل عندما يفصل من عمله أو يحال إلى المعاش . إنه يمرض . وأهم أسباب المرض : الاختلال فى النظام اليومى لنشاطه النفسى والجسمى .

وأول ما يقوله الطبيب للمريض المرهق نفسيا وجسميا هو أن تكون له ساعات محددة للعمل والراحة من العمل . . يجب أن يكون لجسمه نظام . لأن الجسم الإنسانى آلة دقيقة معقدة ، ويجب أن يحكمها النظام والانسجام . . فالجسم آلة . والصحة هى الانسجام العام لكل الوظائف .

واليوجا هى نوع من النظام الشديد للجسم . ونوع من الإنفاق من مدخرات الجسم الإنسانى . فالجسم به طاقات لا تعرف كيف نستخدمها . وإنما نحن نسرف فى تكديس الطاقات فى الجسم ولا ننفق منها . . واليوجا هى تصحيح لكل ما فى الجسم من مادة وطاقة معا . ولذلك فالصحة هى اليوجا . .

وأناس يرون أن الإنسان كسول بطبعه . ولذلك يجب أن تتولى العقاقير عملية تنشيط وتجديد الخلايا . فبدلا من أن يتحرك الإنسان فإنه يبتلع العقاقير التى تحرك دمه . . وتجدد خلاياه . أو تساعده على ذلك . . فتقوم هذه العقاقير بما يجب أن يقوم به الإنسان نفسه . . ومن بين هذه العقاقير تلك الأدوية التى ابتكرتها الدكتورة أنا أصلان وغيرها ، وغيرها كثيرون جدا فى كل الصيدليات ومحال العطارة وفى الكتب الشعبية وعلى جدران المقابر الفرعونية . .

ولم يختلف الأطباء على أن أحسن علاج لكل الأمراض هو الاعتدال . أى ضبط النفس . وأصعب شىء أن تضبط رغباتك ونزواتك وانفعالاتك . أى أن تكون متوازنا . ولأننا نعيش فى عصر مثير للأعصاب ، وملهب للأمعاء ومحرق للدماء ، فإن الاعتدال هو أول ضحايا حياتنا الحديثة . . ولذلك قصرت أعمار الناس ، وسوف تقصر بمرور الوقت ، وكلما تقدمنا واقتربنا من الكواكب الأخرى .

فإذا استطعت أن تعيش فى المدينة بأعصاب عمدة على مصطبة فى الفلاحين فأنت أطول الناس عمرا !

خفة يد صينية

كان الطريق إلى الصين اسمه : طريق الحرير . . أى الطريق الذى يحمل فيه تجار أوربا خيوط الحرير من الشرق إلى الغرب . ويشترون هذا الحرير بأسعار غالية جدا . وظل الطريق كذلك مئات السنين ، حتى اهتدى العلم الحديث إلى أنواع أخرى من الحرير الصناعى . . وأصبح الطريق إلى الصين اسمه الطريق الذهبى . . أى طريق الإبر الذهبية لعلاج جميع الأمراض . وقد اهتدى أهل الصين من ألوف السنين إلى أن أمراض الجسم يمكن علاجها بالضغط على أماكن معينة فى الجسم

عرفوها وحددوا منها ٦٠٠ موقع . فإذا جاء الطبيب إلى المريض أمسك إبرة ذهبية وراح يغرسها فى هذا المركز ويهز يده بخفة وسرعة لبعض الوقت وبذلك يتم علاج أى مريض دون أن يتألم .

وأهل الصين ، فى كل عواصم العالم ، يستخدمون الإبر الذهبية فى التخدير الذى يسبق العمليات الجراحية دون أن ينزف المريض قطرة دم واحدة . . ويستخدمونها فى العلاج أيضًا . وفى استطاعة المريض أن ينظر بنفسه إلى الأطباء وهم يفتحون بطنه . ومن العجيب أن الدم لا ينزف منه ، وأن الأطباء لا يحتاجون إلى نقل دم جديد إلى المريض أثناء الجراحة — كل هذه حقائق لا شك فيها الآن !

وكان أهل الصين يعتمدون على خفة أيديهم فى تحريك الإبرة . ولكنهم الآن اهتدوا إلى استخدام أجهزة صغيرة ذات بطاريات تحدث ذبذبات عالية تصل إلى ألوف المرات فى الدقيقة الواحدة ، مما لا تستطيعه الأيدى الإنسانية . .

ولكن ما الذى تحدثه هذه الإبر فى الجسم الإنسانى ؟ هذا هو السؤال الطبيعى ولكن لا توجد إجابات طبيعية على ذلك .

رأى يقول : إنه علاج عصبى . . وأن هز الأعصاب بصورة سريعة رقيقة يؤدى الغرض المطلوب . .

وهناك رأى يقول : بل فى الجسم الإنسانى مسالك حيوية . . أو مسالك الحياة . . والإبرة تقوم « بتسليك » هذه القنوات فتمضى الحياة فى الجسم بانسجام واتساق . لأن المرض نفسه هو خلل فى موسيقى الجسم . . أو هو اضطراب فى انسجامه . . وهناك رأى يقول : أن فى الجسم الإنسانى شبكات تليفونية . والمرض هو تشابك هذه الخطوط . . أو هو « مس » بين الخطوط . . والعلاج هو إصلاح هذه الخطوط التليفونية . .

وقد اهتدى الصينيون إلى أن الأذن الإنسانية فيها كل المراكز الرئيسية للجسم

كله . . فإذا فرضنا أن مريضا يشكو من ألم فى مكان ما من جسمه . وهو لا يعرف بالضبط ما الذى أصابه . . فإن الطبيب يمسك أذن المريض ويظل يضغط على مراكز الأذن واحدا واحدا حتى إذا ضغط على مركز وأحس المريض به . . عاد الطبيب إلى الخريطة وقال للمريض : إنه المرارة . . أو أنها الكلية . .

فكل شيء فى أذنك . وأنت عندما تنشغل أو تفكر أو تتضايق فتمسك إحدى أذنيك وتهرشها بشدة ، أو تلعب بها فى رفق ، فأنت تضغط على كل مراكز جسمك من أوله لآخره . بعض الحيوانات تعالج نفسها بأن تهرش أذنيها بأقدامها أو بأن تحكها فى الأشجار أو الجدران . .

بعض علماء الصين يقول : انظر إلى الحيوانات وأنت تعرف حكمة الحياة التى لم يهتد إليها الإنسان بعد !

سبيل أم العجوزة

لا أدخلك الله أى مستشفى زائرا أو مريضا . وألا يكون هذا المستشفى هو مستشفى العجوزة . ففى هذا المستشفى كل صفات الورش والصحراوات والسلخانات والخرابات وجزيرة مالطة . فأنت فى هذا المستشفى تحس أنك تؤذن فى مالطة ، فلا أحد يسمعك ولا أحد يستطيع أن يفعل شيئا . مثلا : إذا وضعت يدك على الجرس . فمن المؤكد أنه جرس بلا صوت . وصوته بلا صدى وصداه فى الهواء . ومعنى ذلك أنك أنت « ترن » دون أن تستجيب ممرضة واحدة . لماذا ؟ لأن الجرس عطلان من شهور . وعندهم فى المستشفى أسباب وجيهة جدا لهذا العطل . وهى أسباب تقنعك ولكنها لا تريحك لأنك فى حاجة إلى من يساعدك . تماما كما يقول لك إنسان : إن البيت قد احترق لأن واحدا قد ألقى عليه عود

كبريت وصفيحة بنزين . سبب وجيه . ومقنع . ولكن هل استرحت إلى هذا الخراب ؟

مثلا : التليفونات عطلانة لا تستطيع أن تتصل بالمستشفى . ولا أن يتصل به أحد من الناس . فهى جزيرة مالطة التى أحاطت بها المياه من كل ناحية . وهى معزولة عن العالم تماما . ولابد أن تكون لهذه العزلة حكمة عظيمة . وهى أن يتهيأ المريض للموت ، لأن الموت معناه أن يكون الإنسان وحده تماما ، فلا يستطيع أحد أن يساعده . وعلى الإنسان وحده أن يقطع الطريق بين الحياة والموت على رجليه هو وحده أيضًا . والمصيبة أن المريض يسهل إقناعه بذلك ولكن أهل المريض ماالذى يفعلونه أنهم مطالبون أمام أنفسهم وضمائرهم بإنقاذ المريض ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . ولكن أين السبيل؟ السبيل عبارة عن ممرات طويلة جدا يضيع فيها الصوت والتصفيق والصراخ واللعنات . . وهذه الممرات أيضًا فرصة عظيمة جدا لكى ييأس أهل المريض : فكل شىء صدى وكل صدى هباء . وكل محاولة فشل . وكل طبيب حانوتى وكل ممرضة سفاحة إلى آخر الصفات القاسية التى تتراءى لأهل المريض !

وإذا حاولت أن تطلب للمستشفى كله الشفاء مما هو فيه . فليس عليك إلا أن تفتح النافذة وتتجه إلى السماء . . ولكن قبل أن ترفع وجهك إلى السماء سوف تتركز عيناك على الأرض على « مخلفات » — وليس من الواضح أن كانت مخلفات إنسانية أو حيوانية . ولكن الشىء المؤكد أنها متروكة هناك على الأرض ليراها أى إنسان ويتساءل عن معناها . لا معنى لها إلا الإهمال والقذارة والاعتياد عليها . .

ولكن هذه القذارة تهون إذا قورنت بالإهمال والتراخى واللامبالاة التى يلقاها المرضى . .

وأعترف بأن الاهتمام يصبح شيئا مزعجا إذا مات المريض أى إذا اختاره الله

إلى جواره هنا بسرعة يجيء أناس يهمسون فى أذنك . . وآخرون يسألون عن متى يتم غسل المريض ، وعن الحنة وعن البخور وعن الكافور . ويجيء الحانوتى وتجيء سيارته . . وكل شيء يتم بسرعة جدا . كان هؤلاء الناس يستدركون ما فات ، أو «يلعبون فى الوقت الضائع »وفى غمرة الحزن على الفقيد تنسى المستشفى وكل ما رأيت وسمعت . . وتنسى واجبا عليك هو أن تشكو كل شى إلى أحد الناس ، حتى لا يتعذب مواطنون آخرون – وتكون أنت السبب !

قالوا :

لا تستطيع أن تعيش بغير أطباء ، ولا أن تموت أيضا !

لم يبق للمرأة من كل قواها إلا أن تثير هى الشفقة على نفسها .

« الفشار » رجل له ذاكرة قوية ، يتمنى أن يفقدها الناس !

بأيدينا . . نجنى

قبل الهنا بسنة – يقول المثل المصرى .

أما الذى هو قبل الهنا ، فهو أن نفكر فيما سوف يحدث هذا العام عندما يجيء إلى القاهرة والإسكندرية مئات الألوف من السياح – أكثرهم دائماً من البلاد العربية – أما الذى حدث فى العام الماضى ، ونرجو ألا يحدث هذا العام ، فهو الزحام على المطار اليتيم فى القاهرة ، والاختناق فى الجمارك ، وفتح بطون الشنط وإخراج ما فيها من أشياء تساوى أو لا تساوى ، وأكثرها لا يساوى الوقت الضائع والبهدلة الفاضحة ، والإساءة البالغة إلى مصر وإلى العرب . . ثم انفتاح الأفواه باللعنات هذه اللعنات كلها لا يستحقها موظف واحد فى جمرك القاهرة أو

الإسكندرية . لأنه ينفذ الأوامر السخيفة المخربة . هذه الأوامر فى كل العصور لها معنى واحد . : أن أى إنسان جاء إلى مصر هو مهرب حشيش ومخرب وتجب معاقبته عند أول ميناء للوصول !

وهذه الأوامر تكفى جدا لخلع ملابس أى واحد ، وتعريته وتفتيشه ذاتيا — الأوامر كده . ونحن نعلم جيدا معنى « الأوامر كده » . بل إننا لم نعرف فى تاريخنا الطويل سوى الأوامر البوليسية الإرهابية التى تقول : الأوامر كده . وعلى المشتغلين بالثقافة والعلاقات الخارجية والسياحة أن يضربوا رؤوسهم فى الحائط ، لأن الذى زرعوه فى ألوف الأيام ، قد تبدد فى ثانية واحدة لأن « الأوامر كده » وفى العام الماضى حدثت أزمة المساكن المرتفعة وأزمة الشغالات وأزمة السرقات وأخطر من هذا كله أزمة المواصلات. فالتاكسيات لاتقف وإذا وقفت فبشروط . والشروط باهظة . وبعض السياح كان يحتجز التاكسى باليوم وبالأسبوع . وبذلك حرم أهل القاهرة من ركوب التاكسى ، وضج السياح من ندرة وجوده . والذى حدث فى العام الماضى من الممكن أن يحدث هذا العام . والنتيجة هى أن عددا كبيرا من السياح حولوا طائراتهم إلى عواصم أخرى ! ونحن لا نلوم إلا أنفسنا .

وليس من السهل صنع المعجزات هذا العام ولا الأعوام القادمة . ولكن يجب عمل شىء . يجب تخفيف القيود على السياح . يجب تشديد العقوبة علينا . يجب أن نتعاون جميعا ، حكومة وشعبا من أجل أن نخفف على كل الناس . يجب أن نتعاون يجب أن نجد للناس ألف عذر . وأن نجد لأنفسنا عذرا . .

شىء هام جدا يجب أن نتذكره هو أن نحاول أن نبنى ما انهدم . . وأن أهم شىء انهدم هو هذه العلاقات الإنسانية . . هو هذه الصورة الجميلة لمصر التى كانت وسوف تبقى كريمة جليلة على نفسها وعلى غيرها . . وكل شىء فى أيدينا وبأيدينا إن شئنا أو لم نشأ !

ومن هنا نبدأ

ياخسارة : حلوان لم تعد ذلك الشيء الجميل . ولا ذلك المكان الجاف للصدور المريضة والأعصاب المنهارة . إن حلوان قد امتلأت بالمصانع – بسموم المصانع . والسموم فى الهواء . . على شكل غازات سامة وهباب أسود وحرقان فى العيون . . وهذا الهواء يدخل الصدور كأنه ملايين السجائر الرديئة . ونحن نعرف ما الذى تفعله السجائر الجيدة جدا فى دماء الناس ، فما بالك بالسجائر الرديئة جدا العملاقة على شكل مداخن .

وليس فى متناولى بيانات صحية عن نوعيات الأمراض التى يصاب بها الناس فى حلوان أو فى مصانع حلوان . . لعلهم يجربون أساليب حديثة للوقاية . كأن يشربوا اللبن إجباريا كل يوم . فاللبن ضد السموم – ويقال إن هذه نظرية قديمة . لأن السموم ليست فى الهواء فقط . ولكنها فى الماء ، كل ماء تشربه به نسبة من سموم المبيدات الحشرية وبه نسبة من عادم المصانع والسفن والمجارى وركود الماء فى كل مكان . . وهناك نسبة أخرى من السموم فى اللبن نفسه : لأن اللبن قد جاء من بقرة أو من جاموسة . هى أيضًا قد أكلت البرسيم الذى شرب سموم المبيدات الحشرية فى الماء وفى الهواء . .

المفروض أن تقوم كل المصانع فى حلوان بإصلاح البيئة التى أفسدتها . كأن تبحث عن وسيلة لامتصاص الدخان والهباب الذى يملأ الجو . لابد أن نجد وسيلة لتصفية الدخان . لا كل الدخان ولكن بعضه . . فالدخان يردم البيوت ويقتل

النبات – لأنه يغطى أوراقها . والأوراق هى رئة النبات . فالدخان يكتم أنفاس الأوراق والأزهار والثمار ، والناس قبل وبعد ذلك !

وإذا كان المواطنون هم المعنيين فى الدرجة الأولى ، فالسياح فى الدرجة الثانية . ولا أعرف ما الذى صنعناه لهم من أجل هواء أنقى وعيون معدنية أنظف . وكلمة أنظف هى الكلمة الوحيدة التى تحضرنى الآن . لأن كلمة النظافة لا تكفى – فالذى يراه الناس فى « الكبريتاج » مثلا إن لم يكن قذارة فهى قذارة القذارة أو هى حمامات جهنم . وعند الاغريق نوعان من جهنم : جهنم من النار وجهنم من الوحل – هذه الأخيرة يمكنك أن تذهب إليها برجليك قبل أن يهرب منها كل السائحين وكل المرضى . . ولا بد من علاج . والعلاج طويل . ولكن لابد أن نبدأ اليوم أو غدا وهذا هو المهم . ولابد أن أقول ما يقوله كل الناس فى كل مكان ومنذ وقت طويل :

يجب أن يبدأ كل إنسان من موقعه . وبذلك تبدأ كل المواقع فى التحرك نحو شىء أفضل . . وكل حركة فيها بركة – هكذا يقول المثل . . والحركة المنظمة هى خير منظم . ولا نطمع فى أكثر من أن يكون الخير نظاما ، والنظام خيرا عاما !

مرضى لكنهم عقلاء

أشعر بالإشفاق الشديد على مرضى المستشفيات العقلية . ولا أرى فارقًا كبيرًا بين الناس فى داخل هذه المستشفيات ، وبين الناس خارجها . . أو حتى بين المرضى وبين الذين يعالجونهم من الأطباء . فلا يوجد واحد بيننا لا يكون مجنونا مرتين فى كل يوم . مرة عندما يجد نفسه عاجزا ، ومرة عندما يواجهه أحد بحقيقته . وقد قابلت عددا كبيرا من أولياء أمور المرضى واستمعت إلى أنواع وألوان وأحجام

العذاب العلاجي والوقائي الذى يلقاه أبناؤهم فى المستشفيات . .

وعرفت المقارنات المؤلمة بين هذه المستشفيات وبين حديقة الحيوانات والسلخانات وسجون إسرائيل . . وشاركت فى حملة صادقة ضد المستشفيات – أو دور الاستشفاء النفسى – وانتقلت الحملة إلى السلطات الشعبية . . وتعيش أنت وغيرك وتسمع من يصرخ من الألم وتضيع صرخاته ويعود كل شيء إلى ما كان عليه من عذاب وهوان !

وأخيرًا تلقيت رسالة من شاب يشكو من نوعين من العذاب : أنه يتعذب وأن أخاه يتعذب حتى الموت وقد دخل الاثنان دار « الاستشفاء للأمراض النفسية بالعباسية » منذ عشر سنوات بتهمة الإدمان ، أو حتى يتخلص منهما أبوهما الدبلوماسى ليتزوج فتاة سويدية كانت تعمل سكرتيرته بالسفارة . . أن أحدهما لا يطلب وقف العذاب وإنما يطلب تخفيفه . ولا يطلب إنقاذ أخيه من الموت بسبب الصدمات الكهربية التى تكويه منذ أربعين يوما ، ولكن يطلب فقط أن يكون موته رقيقا هادئا وهو عريان على أرض القسم رقم ٢٤ !

ثم إنه يستحلف الدكتور ماضى أبو العزايم والباشتمرجى كامل الشافعى ، أن يعرفا الشفقة أو الرحمة حتى لا يموت هو أيضًا فى زنزانته التى يأكل ويشرب ويتبول ويتبرز فيها . . وهو يرى أن هذا التعذيب الذى فاق حدود احتماله كان بسبب أنه شكا يوما وأنه أرسل خطابا خارج الأسوار . . ولذلك فانهم يعاقبونه ويعاقبون أخاه ، ويعاقبون الاثنين معا عندما ينظر أحدهما إلى الآخر . .

أنا شخصيا غلب حمارى مع الدكتور ماضى أبو العزايم ، ولا أعرف أين الطريق إليه . . فهل الدولة أيضًا قد غلبت حميرها وخيولها معه ؟

إن فيلم « واحد طار فوق عش الوقواق » يؤكد أن الأطباء فى أحيان كثيرة أكثر قسوة على المجانين من المجانين على أنفسهم !

أوجاع الشفاء

وهل تفهم أحسن من أهل الصين (٧٠٠ مليون) . لقد جربوا ذلك أكثر من أربعة آلاف سنة . والنتيجة مائة فى المائة !

وأمام هذه الأرقام كلها أعطيته ذراعى وساقى . وقال لى : ما هى أوجاعك ؟ قلت له : مصارينى يادكتور .

– وماذا أيضًا ؟

– وهل هذا قليل ؟

– وماذا أيضًا ؟

– قلت والنوم يادكتور ؟

– ماله !

– لا أنام إلا قليلا . وأقفز من الفراش كأننى عفريت . . أو كأن عفريتا أراد أن يسجل بى هدفا فى شبكة تبعد عنى ألف كيلومتر . .

– وهل هناك أوجاع أخرى ؟

– كثيرة . ولكن أريد أن أجد عندك علاجا وأكون لك من الشاكرين مدى الحياة .

– هل أستطيع أن أعرف كيف يمكن أن يكون هذا الشكر .

– أكتب عنك أنى عظيم الامتنان لك . . أو أقول للناس أننى جربت وشفيت . وأدعوهم إلى أن يجربوا مثلى . . وفى ذلك تحية عظيمة لمئات الملايين من

الصينيين وألوف الأطباء من أمثالك . .

– هذا يكفى . لنبدأ فورا .

وأمسك الطبيب خريطة للجسم الإنسانى . ووضع بعض النقط على الذراعين والساقين وفى الأذنين .

واقترب الطبيب ومعه عدد من الإبر الذهبية . وبطاريات وعدادات. وبخفة غريبة دخلت الإبر الذهبية أو الإبر فقط ، فلا أعرف أن كانت ذهبية أو فضية . . وبعد لحظات وجدت أشياء قد تعلقت من كل مكان . . وبقى الرجل ينظر باهتمام شديد .

. . هذا الاهتمام ألهانى كأنه يتوقع انفجارا . . أو تدفقا للدم من كل مكان فى جسمى . . وبعد لحظات لا أعرف بالضبط كم طولها نزع الإبر الذهبية . وقال : غدا نلتقى . .

ومفروض أن أعود فى اليوم التالى وأن يتكرر هذا مرات عديدة . وبعدها يتم الشفاء .

الموسيقار محمد عبد الوهاب يقول أنه شفى تماما !

السم فى العسل !

القاهرة رأت من سنوات فيلما بعنوان « الرقص على الهيدروجين » أو « يوم طفت الأسماك على الماء » الفيلم من إخراج وإنتاج الرجل اليونانى الذى أخرج زوربا . ولم يكن الهدف من هذا الفيلم أن تضحك كانديس برجن وأن تقدم للعالم رقصة جديدة اسمها « النفاشة » . . ولاأن تعرض جسمها الجميل على الناس . لم يكن هذا فقط هو الهدف ، وإنما أن يصرخ صاحب الفيلم من شىء خطير : هو أن

البيئة تلوثت وأن نهاية الإنسانية فى أيدينا . . فقد سقط أحد الصناديق النووية ، وتسربت منه الإشعاعات فماتت الأسماك فى البحر !

الأسماك تموت اليوم فى كل بحر وكل نهر . والسبب هو المواد الكيماوية التى تلقى بها السفن والمصانع فى الماء . فلايوجد ماء ليس مسموما ، لاالنيل ولاأى نهر آخر . ومن المؤكد أننا جميعا نصاب بأضرار المياه الملوثة كيماويا وأن كل الارتباكات المعدية والمعوية سببها هذا التلوث الذى ينتقل الينا من الماء . . والى الحيوانات التى نشرب ألبانها أو نأكل لحمها . والماء عندما يروى الحقول والحدائق يتلوث مرة أخرى بالأسمدة الكيماوية .

وليس اختفاء الطيور الصديقة للنبات والانسان إلا نتيجة لذلك . . الطيور التى تأكل الحشرات والآفات قد قضت عليها المبيدات . فمات أبو قردان والغربان والهدهد . وكلها صديقة للفلاح . . واختفت الفراشات من الحقول . . أما ملايين النحل التى تعيش على رحيق الأزهار التى أصبحت سامة ، فقد ماتت أيضا . وقد استراح العلماء إلى أن عسل النحل برغم ذلك معصوم من السموم ، ولكن العسل نفسه عندما يتعرض للهواء الملوث والأيدى الملوثة ، لابد أن يصبح ساما — وهذا هو الذى تحدث عنه الأدباء والشعراء عندما قالوا أن « السم فى العسل » . وفى التوراة تلك الفزورة التى لم يعرفها شمشون عندما سألته « دليلة » تلك الفتاة الجميلة : ماهو الحى فى الميت ؟

ولم يعرف شمشون ذلك فقصت دليلة شعره مصدر قوته . . أما الشىء الحى فى الميت ، فهو أن النحل قد اختفى فى جثة أسد ميت وراح يضع العسل . انتهت الأسطورة . ولكن علماء القرن التاسع عشر اهتدوا إلى حقيقة أخرى وهى أن الميكروبات التى كانت فى جثة الأسد لم تنتقل إلى العسل . . فالعسل قاتل لكل الميكروبات . .

ومع قدوم الصيف وانتشار الذباب سوف يتعرض الانسان إلى سم يضعه بيديه : هو البيروسول .

إن قرارا أصدرته الأمم المتحدة على لسان طبيب مصرى هو د . مصطفى طلبه يؤكد أن مبيدات الذباب بمختلف أسمائها وأشكالها سم جديد . فالانسان يحاول أن يقتل به الذباب لينام على جثته . . ولكنه لايدرى أنه يشرع فى قتل نفسه أيضا !

الإنسان حيوان ملوث !

فى كل مكان من العالم صرخات تنادى : الهواء ملوث . . الماء ملوث . . الانسان قد لوث كل شىء . . وأن حياته فى خطر . . وأنه هو السبب . . فهو القاتل والقتيل :

وأسباب التلوث كثيرة : المصانع والموتورات . . أو كل شىء يحترق فى الهواء والماء . . أى العادم الذى تخرجه المصانع وتصبه فى الماء . . ومايتزل من دورات مياه الإنسان إلى مجارى المياه .

الموانىء تلوثت بزيت السفن وفضلات الانسان . . وكل الطرق الملاحية التى تمشى فيها السفن من عشرات السنين وبعشرات المئات من السفن الصغيرة والكبيرة . ذهابا وإيابا وأصبح من المألوف ألا تجد الأسماك تمشى وراء السفن . . ومن المألوف أن ترى جثثها عائمة . . فقد أقامت الأسماك جنازة من نوع غريب . . المشيعون هم الموتى ، والنعش هو أعلى القاتل :

وسوف يقضى هذا التلوث على صحة الإنسان . وبعد ذلك على الإنسان نفسه . وكثير من الأمراض التى يعانيها الانسان ولم تكن معروفة من خمسين عاما يصفها الأطباء أو يشخصونها على أنها : أمراض الحضارة ، ثم الاضطرابات

النفسية وضغط الدم والحساسية والصداع النصفى وتسوس الأسنان وارتفاع نسبة الانتحار وانفصال الشخصية أو انفصامها . حتى الاسراف فى زيارة الأطباء أصبح من أمراض الحضارة . فالحضارة لاتؤمن بمعجزات السماء وإنما تؤمن بمعجزات الإنسان . وقد نزلوا بهذه المعجزات وحشروها فى ملابس الأطباء :

ونحن فى حربنا ضد الحشرات والحيوانات الضارة نقتل حشرات أخرى نافعة وحيوانات أخرى فى خدمة الانسان . فالمبيدات الحشرية التى تلوث الماء والهواء والتى نستخدمها للقضاء على الآفات الزراعية قد أبادت النحل وأهلكت العصافير والغربان وأبو قردان . . ثم أن هذه المبيدات يمتصها النبات ولابد أن تظهر آثارها فى الثمار التى نأكلها أو فى الألبان التى نشربها :

ولايوجد طعام فى أيدينا ليس ملوثا . مادام الهواء والماء والحيوانات ملوثة . فالتلوث – أو السم – أصبح من أهم عناصر الطعام الانسانى . ونحن فى حاجة الى معجزة لكى نتمكن من عزل السم فى الجسم الانسانى ، تماما مثل الثعابين والعقارب ، أى نحمله ولانموت به . . كما نحمل السلاح ولايصيبنا وانما يصيب غيرنا . والنتيجة أننا قاتلون لغيرنا من الناس . أى أننا ضحايا تقدمنا الصناعى الهائل .

ولو كان أرسطو فيلسوف الاغريق حيا الآن لاختار للإنسان تعريفا آخر فهو الذى عرف الانسان بأنه حيوان ناطق . والأفضل أن يقال : إن الحيوان قذر – أى ملوث – بفتح الواو وكسرها أيضا :

المرأة هى المرأة

عدت إلى الكتب الفرعونية القديمة ورحت أنظر الى الأساور التى يضعها الرجال فى أيديهم . انها للزينة . هذا أسهل مايقال . فى كثير من البلاد فى العصور القديمة نجد الرجال يضعون الأساور والأقراط والعقود للزينة . فالزينة والتجميل من أهم معالم الأنوثة والرجولة . فالرجل يحب أن يبدو أكثر قوة . والمرأة تحب أن تبدو أكثر تلونا . وتكون ألوانها صارخة وتلفت العين ، وبعد العين تتجه بقية الحواس . والمرأة حريصة فى كل وقت على أن تكون مثيرة للانتباه وفاتنة ومرغوبة . وهذه الزينات وسيلتها الى ذلك .

ولاتزال المرأة فى العصر الحديث تفعل ذلك . . لأن المرأة هى المرأة ، أو أن الأنوثة هى هى لم تتغير .

وفى العصور التى ضاعف الرجل من زينته حرصت على أن تبدو هى بلا زينة . أى يبدو وجهها شاحبا وبشرتها من تحت الفستان وصدرها وكل مفاتنها البارزة ،. فالمرأة هكذا أرادت أن تكون أنثى بلا مظاهرة جمالية أو دون أن تستعين بكل ماحققته الصناعات الحديثة من ألوان وعطور وبودرة وكريمات . فكانت أكثر اثارة .

حتى هذا « الإهمال » المتعمد من المرأة جعلها تبدو كأنها نهضت من الفراش أو تريد العودة إليه .

تقول السيدة لولا ماكريللى فى كتابها الذى صدر أخيرا بعنوان « أنت

ومرآتك » : ان المرأة التى لاتجلس أمام المرآة وتدور عيناها فى وجهها ساعة كل يوم ، لم تولد بعد . . بل إن المرأة كثيرا ماتخيلت أنها أمام مرآة لاوجود لها . . أو كثيرا ماتتخيل أن طابورا يمشى وراءها من المعجبين ، أو من الحاسدات . . كل ذلك تتخيله المرأة فى مرآة عقلها :

وقد لاحظت السيدة لولا أن الرجل الفرعونى كان نموذجا للبساطة . فلم يكن مشدودا مفتولا كالرجل الرومانى . ولا كان جميلا كالرجل الاغريق . ولامنفوخا كالرجل البابلى . . وإنما كان رجلا واثقا بنفسه فى تواضع . ولكنه كان رجلا وكان يتقدم امرأته دون أن يشعرها بذلك . . إنه يتقدمها بأقل من خطوة وكان يرضيها ذلك ويسعدها . ولابد أن الرجل الفرعونى القديم كان سعيدا بأسرته . والدليل على ذلك أننا لانجد المرأة فى حالة خوف منه أو خوف عليه . وهى لهذا السبب لاتسرف فى جذب النظر ، أو فى أن تشغله عن النظر إلى الأخريات . فالمرأة القلقة هى أكثر الناس ميلا الى الزينة ، والمرأة اليائسة جدا هى التى لاتلجأ إلى الزينة . . وأصعب مواقف المرأة هى أن تكون معتدلة الجمال أو التجميل . أى أن تفعل ذلك دون أن تشعر بأنها تضع كل أسلحتها أو تطلق كل ذخيرتها الحية على الرجل أو أى رجل . .

إن تاريخ القصور والملوك فى أوربا وفى الشرق يسجل بكل لون : إن المرأة التعيسة هى أكثر النساء جنونا بألوانها وزينتها .

شر لابد منه

مصيبة كبرى ألا تجد مخدة تسند عليها رأسك لتنام . . مصيبة أكبر أن تجد هذه المخدة – إنها مأساة فيلى برانت مستشار ألمانيا الغربية الذى كان له صديق طول عمره . وباعه الصديق إلى مخابرات ألمانيا الشرقية . .

إنها مأساة يوليوس قيصر الذى خانه صديقه بروتوس . وكانت كلمته المشهورة : حتى أنت يابروتوس . .

إنها قصة السيد المسيح الذى باعه تلميذه يهوذا الأسخربوطى للرومان !

إن الانسان فى حاجة إلى راحة ، إلى أن يستريح إلى شىء أو إلى صدر آخر . مادام يتعب ، ضرورى أن يستريح . وقد يجد الراحة عند فتاة أو عند رجل . أو عند زوجة أو زوجة أب . وكثيرا جدا ماجاء التعب للانسان من هؤلاء الذين استراح إليهم فخانوه ، باعوه . والشاعر القديم يقول :

احـــذر عـــدوك مـــرة   واحذر صديقك ألف مرة

فـلـربما انـقـلـب الصـديق   فـكـان أعـلـم بـالمضرة

وحدث ذلك كثيرا . وسوف يحدث لأنه من الضرورى أن يستريح الإنسان إلى أحد ، ومن الضرورى أن ينقلب عليك الناس لأسباب كثيرة . وعلى الرغم من أننا نعلم هذه الحقيقة ، فإننا لانستطيع إلا أن نحب والا أن يكون لنا أصدقاء ، وإلا أن نبحث عن الأمان . وندفع الثمن غاليا جدا . . فالانسان يشترى الحب بالعذاب ، كما يقول كامل الشناوى ، ويشترى الراحة بالتعب ، ويشترى الوفاء بالخيانة ، والصداقة بالعداوة . .

وأناس ينصحونك : لاتصادق أحدا . لاتتعلق بشيء . لاتعط قلبك لأحد . .
وعمر الخيام يقول :

شيئان فى الدنيا هما أفضل فى كل ماتنوى وماتعمل
لاتتخذ فى الورى صاحبا ولاتنل من كل مايؤكل

ولكنه يطلب المستحيل . . يطلب منا أن نعيش فى خوف من كل الناس . فى شك من كل كلام ومن كل أحد . . يدعونا إلى أن نعيش وحدنا مع وساوسنا وسوء الظن بالناس . . يطلب إلينا أن ننام على المسامير مادامت المخدات خائنة . . أن ننام فى الظلام مادام النور فاضحا ، أن نعيش فى البرودة الآمنة ، بدلا من الدفء المريب . .

وآخرون يقولون : إذا أحسنت الى أحد فاحذر من هذا الأحد . . أى يجب أن تتقى شر من أحسنت اليه . . لأن الذى أحسنت اليه يضايقه أن أحدا فعل له ذلك . . ووجودك يذكره دائما بضرورة الامتنان لك . . ولذلك لايسعده أكثر من اختفائك من حياته ، حتى لايشعر بالعرفان لك . . وهذا المعنى يقوله الخيام مرة أخرى :

إذا بلغت المجد قالوا زنيم وإن لزمت الدار قالوا لئيم
فجانب الناس ولاتلتمس معرفة تورث حمل الهموم !

ولكن كيف؟ مستحيل فأنت تعيش بالناس وللناس وضد الناس – فهم وأنت شر لابد منه !

قالوا . .

هذه الادوية نتعاطاها ضد العلاج .. لأن علاج أمراضنا : الموت ..
حلاوة امرأة : مرار امرأة أخرى !
أغلب الناس موتى ولذلك يجب أن يكون أصدقاؤنا من الأغلبية !

دائما تربح شهر زاد !

مواطن فى بنجالاديش مصاب بمرض الزواج قتلته زوجته رقم ٣٥ — هذا هو الخبر . ويمكن مراجعة هذا الخبر طبعا وفهمه على النحو الذى يعجبك . فيمكنك استبعاد كلمة « مرض » الزواج هذه واستخدام عبارة أخرى كأن تقول : إن هذا الرجل عنده مرض التغيير . . أو عنده احساس بأن زوجة واحدة لاتكفى وأن الزوجة الواحدة مهما غيرت وجهها وملابسها فسوف تبقى واحدة . والرجل يريد كل يوم فراشا جديدا ، أو جديدا فى الفراش القديم . . وحياة هذا الرجل راكدة ساكنة ، ولذلك يجب أن يشيع فيها الحركة والخلافات والمناقشات والضوضاء . وهذا لايتيسر الا اذا كانت هناك أكثر من زوجة . وقد حاول هذا الرجل أن يغير هذه الحياة المملة ، فلم يفلح حتى الزوجة الرابعة والثلاثين . ولما تزوج الخامسة والثلاثين استطاعت هذه الزوجة أن تنتقم للزوجات الأخريات . ولأن هذه الزوجة أقلهن صبرا على هذا الحال ، فعجلت بنهاية الرجل . وجعلت الزوجات جميعا أرامل لرجل واحد . . أو قررت أن تكون آخر زوجة . أو تكون النقطة السوداء التى توضع فى نهاية السطر . . أو تتحول من زوجة الى بطلة ، أو الى مصلح اجتماعى !

وفى امكانك أن تحزن على هذا الرجل الصريح ، لأنه يعبر ويطبق كل ما يدور فى نفسه وفى نفوس كثير من الرجال . ولكن الرجال — غير هذا الرجل —ليست عندهم هذه الشجاعة الأدبية !

وفى نفس الوقت يتجدد الإعجاب بشهرزاد بطلة ألف ليلة وليلة . فقد كان

الملك شهريار يقتل كل ليلة عروساً لأنه كفر بالمرأة . فقد كانت له امرأة وجدها فى أحضان واحد من الخدم . فقرر أن يتزوج كل ليلة واحدة مثلها ويقتلها انتقاما لشرفه . . وتشفيا من الجنس الآخر . . ولكن شهرزاد هى وحدها التى أدركت أن الرجل طفل كبير . وأن فى استطاعتها أن ترضعه قصصا بوليسية . وأن تقف فى كل ليلة عند لغز . وتجىء فى اليوم التالى وتحل هذا اللغز وتقف عند لغز جديد وكانت شهرزاد تروى للملك هذه القصص ، وهو غارق فى أحداث القصص . ونسى حقده على المرأة . ونسى أن شهرزاد قد أنقذت نفسها ، وألف فتاة أخرى . ولم يدرك شهريار هذه الحقيقة إلا فى وقت متأخر جدا . وفوجئ بأن شهرزاد قد حملت وولدت ولكنه لم يلاحظ من ذلك شيئا . لاأحس أنها حملت . ولاتوجعت ولاولدت . . ولاسمع بكاء الطفل . ولارآه . .

وقصص ألف ليلة وليلة دليل جديد على أن المرأة تستطيع أن تفعل الكثير وتستطيع أن تستخدم خيال الرجل ، وأن توقظ فيه الطفل الصغير المتعطش دائما إلى الغرور — إلى رضاعة الغرور ، وبعد ذلك تستطيع حواء — أو أى شهرزاد — أن تقتل فيه كل يوم رجلا وتوقظ طفلا . . لا ٣٥ مرة . . ولكن ألف مرة ومرة !

لن يسرقوا النصر

نحن اخترنا يوم عيد الغفران لعبور قناة السويس سنة ١٩٧٣ . . وسبب هذا الاختيار أننا نريد أن نضاعف عند اليهود شعورهم بالندم . وأن نجعل انتصارنا عليهم يوما لاينسونه . . وأن نجدد عندهم الذكريات الحزينة . . وأن نجعل يوم حزنهم يوم فرح عند المصريين وعند العرب .

ومن المصادفات الفلكية : أن يكون العاشر من رمضان هو عيد الغفران . عند

اليهود وأن يكون ٦ أكتوبر هو عيد الفطر المبارك . .

ولكن بعض الأشقاء الفلسطينيين انتهزوا العاشر من رمضان وهو يوم فرحنا ليجعلوه يوم حزن وأسف عميق عندنا . تماما كما نفعل نحن مع اليهود . ولذلك احتلوا الثكنات المصرية المدنية الآمنة فى مدريد . . وسقط فى أيديهم السفير المصرى واثنان آخران ؟ !

صحيح انه لم يكن سوى انزعاج لم يحقق لهؤلاء المعتدين أى معنى . . ولم يصلوا إلى أى هدف . . ولكنهم أفزعوا المصريين ، وحركوا مواجعهم ، وضربت كل أرملة خديها لأن زوجها قد استشهد من أجل هؤلاء ، وكل أم دقت قلبها لأن ابنها قد فاضت روحه من أجل هؤلاء . .

فما الذى أراد هؤلاء أن يحققوه ؟

إنهم أرادوا أن يسرقوا النور من موكب الشمس . . حتى تكون شمس العاشر من رمضان قرصا مستديرا بلا ضوء ، يوما بلا نهار . . إن واحدا فى أساطير الإغريق اسمه بروميثيوس حاول ذلك . فاستحق من آلهة الإغريق أقصى أنواع العقاب . .

إن حكاية تروى عن الإسكندر الأكبر أنهم طلبوا إليه أن يهاجم الجيوش الفارسية ليلا ، فرفض . . فطلبوا اليه أن يحاصر المدنيين ليستدرج العسكريين فى معركة فرفض قائلا : إننى لاأسرق النصر !

وقد أراد هؤلاء أن يسرقوا النصر ، أن يكسروا فوانيس الفرح ، أن يجعلوا الناس يفطرون فى رمضان ، أن يجعلو عيد الغفران عند اليهود عيدا للكفران عند المصريين . . ولكنهم لم يفلحوا . . ولن يفلحوا . . ولن يهزونا لو كانوا قد نسفوا السفارة . . فقد نسفت لنا بيوت ومصانع من قبل من أجلهم . . ولو قتلوا رجال السفارة – والحمد لله أنه لم يفعلوا – فقد مات لمصر مائة ألف من العسكريين ،

وملايين المدنيين لم يجدوا الطريق تحت أقدامهم . . كل ذلك من أجل هؤلاء . .
فيا هؤلاء لاتخسروا أربعين مليونا من المصريين هم أشقاؤكم قدموا لكم السبت
والأحد فماذا وجدوا يوم الاثنين ؟ !

بابا نويل . . دائما

الكنيسة الكاثوليكية أعلنت منذ سنوات أن شخصية بابا نويل خرافة ولاوجود
لها . والكنيسة تريد بذلك أن تطرد الخرافات من دنياها ومن عقول الناس .
وهذا معناه أن الناس تصنع مالاتجده . أو تخترع ماتريد أن تجده ليربحها .
فبابا نويل أو سانتا كلوس خرج من أدمغة الناس ومن قلوبهم ليحمل أحلامهم من
عام إلى عام . وكان الذين اخترعوا بابا نويل أدركوا ذلك فجعلوه ساعى بريد
يحمل رسائل الآباء الى الأبناء . فهو هذا الرجل الطيب الملىء بالحياة . الذى له
شعر أبيض فى لون الثلج ، أو هو الثلج ، ولكن ملامح وجهه ونضارة بشرته ولمعان
عينيه كلها تؤكد أنه شاب أراد أن يقوم بدور الأب لكل الأطفال فاستعار هذه
اللحية البيضاء الطويلة .

ثم إن هذا الصبى الشيخ يحمل على ظهره هذا الشوال مليئا بكل مايريده
الأطفال فى العالم . وكل أب وكل أم يجمع رغبات أطفاله ويضعها تحت مخدته فى
الصباح . . ويعلن أن بابا نويل قد حقق له كل أمنياته . . مادام — ولابد من هذا
الشرط — هؤلاء الأطفال يطيعون بابا وماما ويذاكرون ويغسلون أيديهم وأسنانهم
قبل وبعد الأكل . وينامون فى ساعة مبكرة !

وهؤلاء الآباء الذين اخترعوا بابا نويل ليحققوا رغبات أولادهم الصغار ، هم
أيضا فى حاجة الى بابا نويل ليحل مشاكلهم الكبيرة . . مشاكل الكبار فى البيت

وفى العمل ومشاكل الدول الكبار مع الدول الصغار . وكانت الأمم المتحدة هى المقر الرسمى لبابا نويل آخر له أسماء متعددة . . مرة كان اسمه برنادوت الذى قتله اليهود . ومرة كان اسمه همرشولد الذى قتله اليهود أو أولياء أمورهم .. وهو الآن اسمه فالدهايم . وهذا البابا نويل لايعمل وحده . وانما يساعده عدد كبير من الرجال والخبراء من كل دول العالم .

ولكن لأن مطالب الكبار يصعب تحقيقها ، فبابا نويل هذا وهو انسان حقيق ، لايستطيع أن يعمل أى شىء . إنه فقط قادر على أن يجمع الناس ويتركهم يتكلمون ويتدخل فى الوقت المناسب فيرفع الجلسة ، إنه مثل الحكم فى كرة القدم يجرى بين اللاعبين ويصفر ويرفع يديه ولكنه لايلعب . . وأحيانا يثور عليه اللاعبون وفى معظم الأحيان يلعنه المتفرجون . وتتركز براعة هذا البابا فى أن يصل الى قرارات هامة . . أشهرها القرار ٢٤٢ . وهذا القرار هو وعد بشىء لم يتحقق بالكامل بعد . ورغم أنه لم يتحقق فإن البابا لم ييأس ولاالشعوب كلها . فاذا لم يتحقق شىء . فيمكن لكل دول العالم أن تعلن وهى مستريحة أن بابا الأمم المتحدة ليس إلا بابا نويل آخر ، وأنه لاوجود له . وإنه نبع فقط من أحلام الدول الصغيرة فى أن يتحقق العدل !

إن بابا نويل الخرافة لأبقى وأروع من هذا البابا الحقيق !

مصر . . دائما

أناس يريدون خراب مصر . . لماذا ؟

وهم يريدون خراب مصر بإشاعة القلق والأرق ، واهتزاز الأرض تحت شعبها وحكامها . فاذا نجحوا فى ذلك هرب صاحب رأس المال العربى والأجنبى . . وهرب السائح . . وهربت الدول من التعاون مع مصر. لأن مصر ليست مستقرة . ولاتستطيع أن تحكم أهلها وزوارها وتجارها . فكيف يلقى الناس بفلوسهم – أو بذورهم – فى أرض لايستقر ترابها وماؤها وهواؤها . ان المثل الاغريقى القديم يقول : الحجر الذى يتحرك لا يثبت عليه العشب .. والمثل الاسبانى يقول : العواصف تحطم الأشجار فلا تكون لها ثمار . . والمثل الشعبى يقول : إن الأرانب هربت من البلد لأن الحكومة تعتقل البغال . ولما سئلت الأرانب : ولماذا تهربين أنت ؟ قالت : لأننى أخشى أن يمسكونى وعندئذ لاأفلح فى أن أقنع أحدا بأننا أرانب أو بغال . . والمثل الشعبى يقول أيضًا : دارى على شمعتك تقيد – أى تظل متقدة مضيئة ! ومعناها أن لابد أن نحيط ماعندنا بسياج من الأمن والأمان لنمضى فى غرس البذور وجمع الزهور ، والثمار وإضاءة الطريق الى المستقبل . . وإذا لم نفلح فى الابقاء على الدفء الهادىء خربت مصر . وقبل أن نخرب مصر نكون قد خربنا معنويات الشعب المصرى فشككناه فى نفسه . . فى حضارته فى فلسفته . . فى انتصارات قواته المسلحة . . نكون قد سحبنا النصر من رأسه ، والنور من عينيه ، والايمان من قلبه ، والسلاح من يديه . . وبذلك تهزم الشعب المصرى فى

داخله . وتحطم صورته فى الخارج .

وليس سرا أن يقال إن هناك حكومة عربية مجاورة لاقيمة لها إلا بماتخرجه من أرضها من فلوس تجعل كرشها أكبر من رأسها ، وأنابيبها أطول من ذراعها ، وتجعل انتفاخها مرضا عضويا ، ووجودها تطفلا ماليا .

إن بعض العواصم العربية قد عاشت بالفعل على خراب مصر على مرض مصر ، على كل القيود التى فرضتها مصر على نفسها . . على ارهاقها المادى والمعنوى . . أى أنها استفادت من كوارث مصر . . فاذا نهضت مصر وألقت بالهم والغم والمرض والكسل والفقر وراءها ، وقامت كما كانت دائما عملاقا . . فان كلا من بيروت وطرابلس وبغداد وغيرها ستعود الى ما كانت عليه من وزنها وحجمها . . ومن الممكن أن تكبر هذه العواصم الصغيرة ، لأن مصر سوف تكبر وتعلو ويتسع صدرها وخيرها وقوتها ، وترفع الجميع معها . وقد فعلت ذلك كثيرا . وهى قادرة على أن تكرر هذا الدور — دورها الحقيق !

عصر العبور

ليس من حق رئيس جمهورية مصر العربية أن يعرض حياة الرئيس أنور السادات للخطر ، فيرغمه على أن يركب سيارة مكشوفة لأن حماية الرئيس السادات واجب قومى . ونحن نحمى كل ما هو حيوى فى بلادنا من أجل الشعب : نحمى المصانع والبنوك والثكنات والمواقع والقادة العسكريين . كل ذلك من أجل سلامة مصر من الأجسام الغريبة التى فى بلادنا وفى كل البلاد . فبلادنا مفتوحة كالسماء ومفتوحة كالصحراء . . . . ليست عليها أبواب أو نوافذ . . وفى مصر خليط هائل من كل الألوان والأحجام : فيها العربى الشقيق والعربى غير الشقيق .

وفيها العدو الذى يتربص ، وفيها الصديق الذى يقلق على مصر وقائد مصر ومستقبل مصر.

والرئيس أنور السادات ليس شخصا عاديا . وليس من السهل أن يظهر لنا شخص فى مثل أخلاقه ووطنيته وحبه لخير مصر ورفاهيتها وسلام الشعوب العربية . . والرئيس السادات همومه غير مألوفة ومشاكله عالمية . ويهمنا أن تسلم يده التى يدير بها مصير مصر ، وأن تستريح عيناه اللتان يرى بهما ثم يقرر بعد ذلك خطوات المستقبل لمصر والأمة العربية .

ثم إننا بالرئيس السادات قد دخلنا عصر الخطوات إلى الأمام والأمان . عصر عبور الحواجز والسواتر إلى النور والحرية والعدل والرفاهية . . عصر سيادة القانون والعدل . . عصر السلام لنا . . ولغيرنا . . عصر حرية الكلمة . عصر يمكن أن تقول لرئيس الجمهورية : إننى أختلف معك ، وليس من حقك أن تركب السيارة التى تعجبك . . وليس من حقك أن تمشى فى الشارع . . ولا أن تعرض سلامة مصر وأمنها إلى هذا الخطر !

إن الرئيس السادات قد نقل مصر والمنطقة كلها إلى الصف الأول فى قضايا العالم منذ شهور معدودة . ونحن ندعو الله أن يعطيه عمر الثورة لتنعم مصر بالراحة المؤكدة . . وأن ينعم فيها التعمير بالتحرير من قيود الإدارة والرقابة والروتين . .

إننى أتذكر أن تشرشل رئيس وزراء بريطانيا أثناء الحرب العالمية الثانية قد ضاق بإجراءات الأمن حوله . وصرخ . ومن حقه أن يصرخ . وأصدر قرارا بتخفيف الحراسة عليه . . ولكن لم ينفذ هذا الأمر . . لا عصيانا له ، ولكن لأن رئيس وزراء بريطانيا قد تجاوز حدود سلطاته . فليس من حقه أن يعرض حياة شخصية فذة مثل تشرشل للخطر ، فيهدد أمن بريطانيا وقواتها أثناء الحرب !

موهبة : أن تولد كل يوم !

عندما سئل برنارد شو : كيف بلغت التسعين ؟

وكان جوابه الحاد : لا شيء . . لا آكل لحوم الحيوانات وأستطعم لحوم البشر !

ويقول : إنه هكذا كان نباتيا !

ولما سئل الفيلسوف برتراند راسل : كيف بلغ التسعين ؟ قال : لم أتوقف عن البحث عن السعادة العقلية – أى أنه كان فيلسوفا كل الوقت !

ولما سألوا تشرشل : وكيف بلغت الثمانين ؟

قال : السيجار فى فمى والفرشاة فى يدى والنوم ساعتين بعد الغداء !

وسئل عشرات المعمرين فقالوا : النوم المبكر . . واللبن الزبادى . . وعدم شرب الخمر . . وعدم التدخين .

وأخيرا سئل عازف التشيلو العالمى الذى بلغ الرابعة والتسعين من عمره : كيف وصلت إلى هذه السن ومازال بهذه الصحة !

وبسرعة أمسك آلة التشيلو – وكأنه يريد أن يمسك الخشب حتى لا تصيبه العين وقال : لا معجزة فى ذلك . . فأنا منذ ثمانين عاما أصنع نفس الشيء . . أعزف ساعتين فى اليوم . وأشعر أن كل يوم هو يوم جديد . وأن الذى أراه أمامى قد ولد لأول مرة . وأجد لذة فى الطعام وفى الشراب . وأعيد النظر والسمع والشم واللمس لكل ما حولى . . هذا المقعد تأملت ألوانه كل يوم . .

ومررت بأصابعى عليه كل يوم . . وكذلك كل مافى هذه الدنيا .. إننى أولد كل يوم . . لأن كل شىء حولى يولد كل يوم . . والإنسان يعيش أطول إذا كان حاضرا دائماً . إذا لم يغب عن الحياة ، وإذا جعل الحياة لا تغيب عنه . . فالموسيقى ليست واحدة . والطبيعة ليست واحدة . وأنا لست نفس الشخص الذى كان بالأمس والذى يكون غدا . وإذا مت فمعنى ذلك . . أننى توقفت عن التجدد . وأن جسمى لم يعد قادرا على أن يلدنى ! فقط هذا ما أعمله !

وكأنه قال شيئا سهلا يمكن لأى إنسان أن يفعله . إنها موهبة عظيمة أن يولد الإنسان مرة واحدة . ولكن أن يولد كل يوم هذه إحدى المعجزات !

وعندما سئل رجل من الدقهلية تجاوز المائة عام أجاب ولا يهمك !

ولا يهمك من الناس ومن مصائب الناس . ومن الحياة ومن مصائب الحياة التى هى الناس . كلام معقول . . ولكن كيف ؟

قليلون فى هذه الدنيا من يستطيعون أن يفعلوا ذلك . فإذا فعلوا طالت حياتهم . . ولكن أى حياة هذه؟

الصور المقبولة

هذه النكتة سمعتها من الشاعر السوفيتى يفتشنكو عندما كنت فى رفقته فى أسوان . يقول إن فنانا فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى طلبوا إليه أن يرسم أحد الأقطاب وكان هذا القطب أعور . ولما رآه الفنان أصيب بحيرة شديدة . . كيف يرسمه ؟ إن رسمه بعين واحدة كان واقعيا جدا ، وإذا رسمه بعينين كان غير واقعى . ولكن الصورة بعينين أجمل من الصورة بعين واحدة . . وإن فقأ عينيه وأبرز جبهته ورأسه ، لم يكن واقعيا أيضًا . ولكن لابد أن يرسمه . وإذا رسمه بعين واحدة فى

متتصف وجهه ، فإنه بذلك يجعله أقرب إلى صور الشياطين ، أو صور سكان الكواكب الأخرى ، كما تخيلهم الناس فى كل العصور . .

وبعد أيام اهتدى الفنان إلى رأى . لقد رسم هذا القطب السياسى بروفيلا – أى رسم جانبا من الوجه . أى الجانب الذى به العين . وهو بذلك لم يغير من الواقع شيئا . ولكن اختار أجمل مافى الواقع . ولكنه فى نفس الوقت واقعى ذكى مرن !

وليست هذه النكتة إلا أسلوبا ذكيا فى معالجة الواقع عموما . أو ما يجب أن يفعله الفنان أو الكاتب أو السياسى أو المصلح عندما ينظر إلى الحياة عمومًا . ففى الحياة عيوب كثيرة . ومصائب أكثر . ولو وضعنا الكوارث بعضها إلى جانب بعض لأصبحت الحياة شيئا لا يطاق . وإذا أغفلنا عيوب الحياة ، ولم نر إلا الجانب المشرق فيها ، كنا مغالطين ومضللين وحشاشين أيضًا .

إذن ما هو الحل اليومى لهذه المشكلة اليومية . . أن نفعل كما فعل هذا الرسام . . يجب أن نختار الجوانب الممكنة . الصور المقبولة . وسبب ذلك أننا لا نريد أن نجعل الحياة مقبرة متوحشة للأحياء . . وأن نغريهم بأن يموتوا أفضل لهم ولنا . وهكذا يتحول الكاتب أو الفنان إلى « حانوتى » . . وهذا الحانوتى يريد أن يقضى على مشاكل الناس بالقضاء على الناس ، أو يريد أن يحل أزمة السكن بأن يضع الناس كلهم فى السجون . . أو يريد أن يقضى على زيادة السكان بقتل الرجال فقط أو الإناث فقط . . أو قتل الأطفال . .

ونحن نقع كثيرا فى هذا الغلط . فباسم النقد لعيوب المجتمع وتوجيه الناس إلى الأفضل فى حياتهم نتحول إلى زوجات أب لكل طفل : نضربه ولا نرى إلا عيوبه وإلا متاعبه . . ولا يريحنا إلا القضاء عليه . . وعلى كل طفل آخر . . وكل حياة وكل أمل فى إنسان أفضل !

والذى يوجع القلب حقا ، أننا عندما ننظر إلى مصر ننسى أنها أمنا . وأنها ليست زوجة أب .. !

قالوا :

أن تحب : أن تطبق عينيك عن نساء كثيرات !

أكبر دليل على شجاعة المرأة فى العطاء : أن تحب !

فى الثلاثين : تبدأ المرأة أو تنتهى !

معانى الخريف

الهواء فى المقابر صحى : يناسب الأحياء ولا يحتاج إليه الموتى : فالهواء نقى جاف والشمس ساطعة . وهناك أشجار تقوم بدور « الفلتر » للهواء إذا تلوث من شىء . ويظل جو المقابر صحيا ، حتى إذا ذهب الأحياء ، فإنهم يفسدونه . ولذلك يجب أن يذهب الأحياء من حين إلى حين لتستريح صدورهم . .

وليس فقط هواء المقابر هو الذى يريح نفوسنا وأجسامنا . . ولكن الوقوف أمام القبر ، كما تقف الكلمات فى نهاية السطر أمام مثل هذه النقط . . . الوقوف أمام النهاية هو الذى يريح . الوقوف عند محطة إطلاق الأرواح إلى مداراتها فى السماء . هنا ينتهى كل شىء ويصبح لا شىء . هنا ينفصل الإنسان عن الذين يحبهم ويحبونه ، ويكرههم ويكرهونه ، ويزاحمهم على نصيب أكبر من الحب والكراهية . . هنا تنتهى السلسلة الطويلة التى بدأها الإنسان فى بطن أمه . . هنا ينتقل الإنسان من ظلمة الرحم إلى ظلمة القبر . . هنا يعود الإنسان جنينا مرة أخرى فى سلسلة لا يعرف إلا أولها ، أما آخرها فلا يعلمه . . هنا ينفلق الإنسان : روح

وجسد . . روح هناك وجسد هنا . . الروح فى « ناحية » والجسد فى ناحية أخرى . .

ولكن أين هذه الناحية الأخرى نحن لانعرف ، ماذا بعد هذا لا نعرف ؟

أين يذهب هذا الذى تعرفه ؟ لا نعرف الآن . . وسوف نعرف بعد ذلك ما هى أهمية هذا الذى تعرفه ؟ ما أهمية هذه الحياة ؟ ما أهمية هذا الوجود الإنسانى . . ما هى الحياة ؟ ما هو الحرص عليها ؟ ما هى الكبرياء ما جدوى الحب ، ما ثمن الكراهية . . ما معنى التنافس والتناحر والحروب . . ما معنى كل هذه الحضارة الإنسانية . . إذا كانت هذه الحضارة مثل العطر للزهر . . فما الذى يبقى من الزهر إذا ذهب العطر . . ما الذى يبقى من الإنسان إذا اختفت الحضارة . .

ثم ما الذى يبكى عليه عند المقابر ؟ ما الذى نراه وتخاف منه ؟ ما الذى نستعجله ؟ ما جدوى هذه الدموع هل يشعر بها الميت .

وهل الذين نبكى عليهم يدرون بنا . . وإذا دروا فما فائدة أن نبكى على الذى راح . . ونحن سوف نروح وهل يهمنا أن يبكى أحد علينا ؟

هل نحن نبكى على أنفسنا ؟

أقرب إلى العقل أن نفعل ذلك نبكى على الوحدة المتوحشة . . الوحدة التى تأكل الدنيا من حولنا ، فلا يبقى أحد سوانا . . على الوحدة قبل القبر ، وعلى الوحدة الموحشة بعد القبر .

هل نبكى على أن كل شىء ينتهى هكذا . . بمنتهى البساطة يتوقف كل شىء . ولا أهمية لشىء . ولا قيمة لأحد . ولا خطورة لهذه الإنسانية . ولا وزن لهذه الحضارة . كله تراب على تراب إلى تراب . . منتهى التفاهة نحن والذين من بعدنا والذين من قبلنا .

لست على يقين من شىء . . ولكن على يقين من شىء واحد : إننى أبكى على بقايا الذين راحوا . . بقاياهم فى نفسى وفى جسمى . . إننى أبكى بهم عليهم ؟
« ملحوظة : كل هذه المعانى تساقطت حولى كأوراق الخريف بعد أن جفت دموعى ! » .

بيكاسو ميّتا

مات كلب العمدة ، سار الناس فى جنازته . مات العمدة ، لم يمش أحد فى جنازته — مثل مصرى !

مات بيكاسو حزن الناس عليه . الذين يعرفونه والذين لا يعرفونه أكثر بزمان من الذين يعرفونه . وأنا حقيقة لا أعرف لماذا حزن عليه أى أحد . لا هو شاب صغير مات فى حادث سيارة . أو طيارة ولا الظروف وقفت فى وجه موهبته . ولا هو صاحب موهبة ، ليس لها ثمن ، ولا الثمن الذى أعطى لموهبته كان قليلاً خانقا له ولموهبته ، وباعثا على يأس مواهب أخرى كثيرة فى فرنسا موطنه الثانى أو أسبانيا موطنه الأول ، أو فى العالم موطنه الثالث . ولا هو عندما كبر أصبح رجلا خيرا إنسانيا لا يكاد يسمع عن فنان صغير مال عليه الزمن حتّى اهتز له قلبه وأرسل له بضعة ألوف من الدولارات . لا شىء من ذلك . فقد كان رجلا بخيلا . والحق معه . فالبخل خير من سؤال البخيل — حكمة أعجبت بها ولا أعرف كيف أطبقها . ولا كان هو الرجل المخلص لأحد من الناس ، رجالا أو نساء . فمثلا عالم النساء : كان فاتنا لكل النساء . والمرأة مبهورة بالرجل الذى يتحدث عنه الناس لأنه شخص غير مفهوم ، أكثر من الرجل الذى لا يتحدث عنه الناس لأنه مفهوم . فالأول تقليعة وهى عاشقة للتقاليع . وكثر الناس على بابه وفى بيته وفى لوحاته . واقفات

نائحات عاريات مجنونات مشوهات . وهذا هو الذى يعجب النساء . وتزوج منهن ما استطاع . وطرد البوليس منهن ما استطاع أيضًا . ولكن تعبت النساء كالحبر فى فرشاته ، وكالفلوس فى البنوك ، وكالحسد فى عيون الفنانين الآخرين .

وعندما عرف الناس كم تبلغ ثروته سحبوا حزنهم عليه – أن كانوا قد حزنوا . وتمنى كل رجل أن يكون ابنه الوحيد ، وكل امرأة أن تكون أرملته الوحيدة . ولم يعد أحد يحزن عليه . ولو تذكر بعضنا كيف حزن العالم كله على كلب بيكاسو يوم سقط غارقا فى برميل من الزيت يستخدمه بيكاسو فى الألوان ، لأدرك الناس أن الحزن على كلب بيكاسو كان أصدق وأعمق من الحزن عليه . . فالكلب مسكين ، وأكثر من ذلك أن ثروة سيده وشهرته وعبقريته لم تنقذه من هذا الموت . . صحيح أن الكلب ترك وراءه سيدا يملك الملايين ولكن هذه الملايين لم تنقذه من الغرق . . لا هو ولا سيده !

قالوا :

فى الشباب : كل الناس أصدقاء وأعداء ، فى الشيخوخة لا أعداء !

فى الشباب لا نرى أحدا ، فى الشيخوخة لايرانا أحد !

يبحث عن الراحة فى الحب ، يبحث عن الظل فى الشمس !

المشى والعلاج

الكتب التى تقول لك : إن الحياة تبدأ بعد الخمسين أو بعد الستين ، كلها تؤكد حقيقة واحدة . . أنه من الممكن أن يطيل الإنسان فى عمره . فبدلا من أن يشعر بالشيخوخة ابتداء من الخمسين أو الستين ، ويبدأ فى التوقف عن ممارسة الرياضات اللذيذة التى اعتاد عليها ، فإنه يبدأ يحذف من حياته أشياء كثيرة لا تتناسب مع سنه . فهو مثلا لا ينهض من النوم مبكرا لأنه عجوز . ولا يسهر حتى ساعة متأخرة لأنه رجل عجوز ، ويسرف فى طعامه وشرابه ، لأنه يا الله .. حسن الختام . ولا يذهب إلى السينما أو المسرح لأنه لم يعد شابا . .

وأسوأ من هذا كله أنه لا يمشى على قدميه لأنه خلاص كبر ، ورجل هنا ورجل هناك – أى رجل فى الدنيا ورجل فى الآخرة !

إن كل الأطباء وخبراء التجميل يرون أن العلاج الوحيد لكل أمراض الإنسان بعد الأربعين هو : المشى . . . والكثير من المشى . . وأحب أن أقول شيئا هاما . . وهو أن الأمراض التى تظهر بعد الأربعين لا علاقة لها بالسن. فمن الممكن أن تكون هذه الأمراض قد بدأت فى العشرين أو الثلاثين . ولكنها فى الأربعين ستجد الجسم مستعدا للاستسلام لها . .

فالمشى علاج للروماتزم وعلاج لضغط الدم . وعلاج للسمنة وعلاج للنحافة لأن المشى يؤدى إلى تنشيط عام فى الدورة الدموية وإذابة الكثير من المواد الزائدة على الحاجة لها أسماء غريبة لاتينية ويونانية أعفيك منها . .

وأعى نفسى أيضا . .

فالمشى بعد الأربعين وبعد الستين لا يجعل لك رجلا هنا ورجلا هناك . . وإنما يجعل الرجلين هنا عشرات السنين . . برنارد شو مثلا . . مات فى التسعين !

مطارد أنت أيها الانسان !

أنت لم تعد فى حاجة إلى أن تخطف ماتريد .. ولا أن تصرخ بأعلى صوتك ليسمعك الناس . . ولا إلى أن تقتل غيرك لأنك مختلف معه فى الرأى . .

وإنما أنت تنتظر معظم الوقت ليأتيك كل شىء وأنت جالس : النور يدخل لك من الأسلاك والماء من الحنفيات والرغيف من الفرن . . وجميع ما يحدث فى مصر وفى العالم يجرى أمامك على الشاشة . . فالدنيا من القمر حتى أعماق البحر تسعى إليك . . لا لأنك ملك الملوك ،ولكن العلم الحديث قد ألغى المسافات بين الناس . .

ومنذ دخل الإنسان عصر الآلات المتطورة جدا ، أصبح مجهوده الجسمى ضئيلا . لا يستخدم يديه ولا قدميه ولا أسنانه إلا قليلا . . فالسيارات والطيارات والشوك والسكاكين كلها اختصرت تعبه وعذابه . .

واعتاد الإنسان على أن يجلس . . وأن يتمدد وأن ينام وهو يأكل وهو يشرب . ولما تعب الإنسان من هذا الكسل والخمول الذى ضاعف وزنه ، وجمد عروقه فإنه عاد إلى المشى وإلى الجرى . كأنه لا توجد فى الدنيا مواصلات . أوكأن العلم الحديث لم يخترع له شيئا . .

إن الآلات الحديثة قد أعادت إلى الإنسان مرحلة قديمة جدا من حياته وهى مرحلة الزراعة . . أو مرحلة الفلاحة . . أى أنه يعمل وينتظر . . ويبذر الأرض

وينتظر ، ويرويها وينتظر . . ويظل طول عمره فى انتظار الشمس والهواء والسماء أن تفعل من أجله أى شىء . . والتاريخ يقول لنا أن مرحلة الزراعة هذه قد جاءت بعد مرحلة أخرى مثيرة . وهى مرحلة الصيد . . فقد اعتاد الإنسان أن يطارد الوحوش ، وأن يأكل لحمها ويرتدى جلدها . . ويطور أسلحة الصيد . . وكانت حياته مثل حياة الوحوش أيضًا : مثيرة مخيفة . وكانت لحظات الراحة والأمان قليلة . .

ثم إن الإنسان بعد أن تجاوز مرحلة الصيد ودخل فى مرحلة ترويض الوحوش وتحويل الطيور الجارحة إلى دواجن ، وأقام البيوت والأسوار هدأت حياته وسكنت واستقرت . . وأحس فى هذا الهدوء بالاستكانة وبالخمول والتواكل والانتظار . . وهو الآن قد دخل فى هذه الحالة النفسية ، رغم تطور العلم الحديث . .

ولذلك يجب أن يحرك الإنسان حياته الساكنة ويهزها ويثيرها . ويضع الشطة والنار فيها حتى لا يكون ضحية لوحش لا يشبع هو : الملل !

وهذا ما يفعله التليفزيون والسينما والرياضة بكل أنواعها . مثل كرة القدم . . ما معنى الذى تراه ؟ إنهم اثنان وعشرون لاعبا يطاردون كرة يقتربون منها ولا يمسكونها . . يجرون وراءها حتى إذا أدركوها طردوها وأبعدوها . ويتساقطون ويتضاربون والناس من حولهم يصرخون . . والتليفزيون يعرض رعاة البقر والجريمة والجاسوسية والحروب وكلها مطاردات والناس يتابعون ويلهثون . إنهم يحنون جميعا إلى مرحلة الصيد والقنص . ولولا ذلك لأصبحت الحياة بحيرة راكدة كريهة الرائحة واللون . فإذا هززت حياتك تغير لونها ورائحتها وطعمها . . وإذا تحرك كل شىء فإنك تحتاج إلى السكون . وإذا سكنت حياتك فأنت فى قلق إلى تحرياتها ، وتظل هكذا ، فلاحا تعب من الانتظار ، وصيادا أرهقته المطاردة حتى الموت !

الدين والفن

إما أن يكون معنى الدين مختلفا تماما ، وإما أن تكون روح الجدية هى التى لها معنى مختلف تماما عن كل معنى عرفناه أوقرأنا عنه أو تصورناه . . وإليك مثلا : كل التمثيليات الدينية أو حتى الأفلام الدينية .

فأنت أمام مجموعة شاذة من الناس . . واحد لا تكاد تكلمه حتى يتشنج ويصرخ كأنك كويته بالنار . . أوسقطت ملابسه فجأة وإذا هو عريان ملط . أو أمام واحد جاد جدا جدا ولكنه فى حالة غيبوبة . . فهو إذا تحدث إليك نظر إلى الحائط . . أو تجاوزك ونظر إلى السماء كأنك غير موجود . . أوكأنه غير موجود مثلك تماما . . ولا نعرف إن كنت أنت المقصود بهذا الكلام أو المتفرجون فى الصالة . . أو تجار المخدرات الذين أعطوه هذه الكمية الهائلة التى دوخته . .

ثم إنك تجد النساء عادة أكثر جرأة من الرجل . تجد المرأة الشجاعة التى تموت فى سبيل الدين . . أو التى لا يهمها ما تلقاه من أجل الدعوة أو المبدأ . .

ثم إنك تجد الكفار من أى دين أكثر أناقة وألطف شكلا وأخف دما . .

والنتيجة أن الذين يقومون بأدوار الأبطال المسلمين المقاتلين من أجل الإسلام مجانين مهوسون غلاظ الصوت وثقلاء . . ومفروض أن هؤلاء هم الذين ينشرون الدعوة أو يحمونها . . وهم أولا وأخيرا مثل عليا لكل الناس . وعلى ألسنتهم قد جاءت أجمل العبارات وفى حركاتهم أصعب المواقف التاريخية والدينية . .

فكيف تجد الدين شيئا مختلفا ؟ لابد أن الدين عند المؤلفين والممثلين والمخرجين

له معنى سخيف جدا . ولابد أن مفهوم الجدية هو أن يكون الإنسان ثقيل الدم . أما خفة الدم فقد احتفظوا بها للصوص والمجرمين والعشاق . . أما رجال الدين فقد احتفظوا لهم بكل ما يجعل الناس يكرهون الدين والدعوة الدينية . . والأفلام الدينية .

ولو استعرضنا الآن أسماء الأفلام الدينية الأجنبية وكيف أنها كانت جادة لطيفة . . وكيف أن أحدا لم يفقد صوته بسبب الزعيق ،أو لم تنفجر عروق رقبته بسبب التشنج .

والسبب واحد : هو أن مفهوم الدين والتعبير عنه مختلف تماما عندنا وعند غيرنا . . فأفلامهم تدعو إلى الإيمان ، وأفلامنا تدعو إلى الإيمان بغير ما تؤمن به !

الشباب والايمان

هل الناس فى أمريكا آمنوا أخيرا؟ إن انتشار عدد من المذاهب الدينية الشرقية دليل على أن الشبان قد اتجهوا إلى الله ؟ هل هى نزعة دينية هل هى موجة إيمان؟ .

فقد ظهرت فى أمريكا مذاهب دينية تدعو الشباب إلى ترك البيت وإلى الحياة فى العراء وفى خيمة وعلى رغيف يتسولونه من الناس . . لقد فعل ذلك ملايين من أبناء الأغنياء . . فجاءهم رجل من الهند . وأخيرًا جاءهم مليونير من كوريا الجنوبية يدعو إلى وحدة الكنائس المسيحية . . أو يدعو إلى الوحدة الروحية وجمع الصف . . أما رهبان فيتنام فإنهم يدعون الشباب إلى أن يتجردوا من زينة الحياة : من السيارات ومن الملابس والشعر الطويل والبيوت المكيفة . .

وإلى أن يبتعدوا عن كل ما هو حرام . ويدعونهم إلى الحب الشريف والزواج

الشرعى . . بل إن بعض المذاهب تدعو العروسين إلى أن يتباعدا أربعين يوما . . وفى ذلك ضبط لرغبات الإنسان . . وتأكيد لآدميته . .

وقد ظهر من بين الأنبياء الجدد عدد من النصابين الذين استغلوا الشبان فى التسول واستدرجوا الفتيات إلى الدعارة . ولذلك اختطف الآباء أبناءهم بالقوة . وظهر عدد من هؤلاء الدعاة أمام البوليس والمحاكم ومايزال أكثر الشبان يعيشون على أطراف المدن ، مستنكرين الحضارة الغربية الأمريكية . مؤمنين بالبساطة الهندية الصينية الكورية الفيتنامية . ثم إن هؤلاء الشبان لم يجدوا الأبوة والحنان والدفء إلا عند هؤلاء الدعاة — أى هؤلاء الأنبياء الوافدين من الشرق . كما أن المجتمع الأمريكى فى غاية القسوة . إنه محموم يتساقط منه أثناء الجرى والمنافسة والسباق كل أطفاله الصغار وكل قيم الإنسان : الأبوة والبنوة والحب والحنان والأسرة .

كما أن هؤلاء الشبان يريدون أن يعرفوا الحب وأن يعطوه لأطفالهم إنهم بذلك يقومون بتصحيح للأوضاع الخاطئة التى عاشوا فيها وتعودوا عليها . إنهم لم يجدوا الحنان . ولكنهم رغم ذلك يريدون أن يوفروه لأطفالهم . . إنهم ليسوا حاقدين على أحد . وإنما هم يريدون أن يحققوا نوعا من العدل والتعادل الاجتماعى .

إن واحدا من هؤلاء الدعاة وهو مليونير من كوريا الجنوبية اسمه « مون » وقف فى الأسبوع الماضى يقول : ياشباب أمريكا . . أنتم لقطاء . يا شباب أمريكا . . أنتم ضحايا المصانع والأحزاب السياسية وشركات الأدوية . . ياشباب أمريكا تعالوا أعلمكم شيئا جديدا . . أحبوا بعضكم البعض . . إن الإنسان ليس فى حاجة إلى معجزة لكى يكون إنسانا . . فقط أن يتعانق فى الله . وأن يحب فى الله . . وأن يعيش بالله ولله وفى الله . . ويصرخ الشبان بالملايين قائلين : آمنا بأى إله !

زحام .. زحام !

الفنادق والشقق الخاصة فى السعودية لا يمكن أن تستوعب الحجاج ولا تستوعب منهم إلا عددا قليلا وبأسعار غالية جدا . . ولذلك فكثير من الناس ينامون فى الشوارع . . أو ينامون حول الكعبة . . أو أمامها . . وهؤلاء الذين حلوا مشكلة النوم بالعشرة والعشرين فى غرفة واحدة ونام تحت السماء ثلاثة أرباع مليون نسمة . . وفى استطاعتك أن تتخيل بقية احتياجات الإنسان الذى يأكل وينام فى مكان واحد فى الطريق العام . . وفى استطاعتك أن تتخيل كيف يقضى ضرورات الحياة بعد ذلك . . وما هى نوعيات هؤلاء الناس ومدى حرصهم على النظافة أو النظام ، ،. أو إدراك الأضرار العجيبة التى تجىء نتيجة الإهمال أو الاستخفاف أو الجهل . .

ولا يوجد بيت فى جدة ليس به حجاج . . فى غرفة أو على سلالمه أو فى دورات مياهه . . وفى هذه الغرف يتزاحم الناس بكل ما يملكون من طعام ومتاع . . ومن يسعل ومن يدخن ومن يطبخ ومن يأكل ما طبخه أو يفرضه على الآخرين . . أعرف صديقًا أستاذا فى الجامعة كان فى حاجة إلى أن يطهو طعاما مسلوقا . . وكانت رائحة الطعام المسلوق تضايق الستة الآخرين فى غرفته . فهى تذكرهم بالمرض والمستشفيات فكان يذهب إلى تحت سلم عمارة أخرى ويحمل الوابور والحلة وحتى لا يعود بالطعام إلى غرفته كان يأكله فى الشارع . .

أكثر الحجاج كانوا ينامون فى الخيام . والخيام عبارة عن مخابئ تحت الأرض .

ومفروض أن يقضى الإنسان كل احتياجاته فى هذه الخيام . . كلها . . وليس من حقه أن يسأل : ولماذا يتجه البول وغيره إلى الأماكن المخصصة للنوم . . ولا ينتظر الجواب طبعا . لأن الأرض منحدرة . ولأن انحدارها لسبب ما يتجه ناحية قطاعات النوم . . وقد رأيت بعض الأندية الرياضية الكبرى فى مصر تقيم مخيما كبيرًا خانقا . . ولكنه أحسن بكثير جدا من النوم فى العراء . . أو النوم فى الحرم أو أمامه . .

وتبدو صور الأزمات بارزة صارخة فى منطقة منى حيث يجب أن يتوجه الحجاج لإلقاء الجمرات . . فى هذه المنطقة لا يوجد إلا فندقان . أحدهما هو أغلى فندق فى العالم كله . والآخر أرخص منه قليلا . الأول هو فندق التيسير . . والغرفة بعشرة آلاف ريال لمدة ثلاثة أيام . . أى ما يعادل ألفى جنيه . . وحجة الفندق أن الفنادق قليلة . وأن هذا عرض وطلب . وأن هذا الفندق لا يفتح إلا ثلاثة أيام فقط من كل سنة .

والباقى بيوت لضيافة الوزارات المختلفة ثم هناك « السبيل المصرى » . . أو التكية المصرية . .

وهذه مهزلة أو مأساة أخرى سوف أعود إلى الكتابة عنها على حدة . . فلا هى سبيل ولا هى مصرية . . بل لاسبيل إلى السبيل المصرى !

ويجب أن يضاف إلى هذا كله الاستغلال الفظيع الذى يتعرض له الحجاج . فالمطوفون يستغلون الحجاج وأصحاب البيوت أو البنسيونات . . ويفرضون عليهم أوضاعا لا يمكن احتمالها . . أعرف صحفيا مصريا أرغمه صاحب الفندق على أن يكون السابع فى غرفة بها ست سيدات باكستانيات ورفض وفضل النوم أمام الغرفة . فجاء صاحب الفندق بامرأة سابعة وحشرها فى الغرفة !

ويجب أن تكون هناك حلول تتعاون فيها الدول الإسلامية !

مأساة الغد

بقدر ما هناك أشكال وألوان من الثراء . هناك أضعافها من الجوع والعطش والمرض والعرى . .

من عشرين عاما اندهشت جدا ، عندما ذهبت إلى إحدى قرى مصر فوجدت فلاحا مكسحا يجلس إلى جوار الحائط ، وقد نام فى الشمس ونام عليه الذباب ، وإلى جواره نامت أوزة . . والأوزة مربوطة فى رجله . . ثم إن هناك مسمارا قد نفذ من رجلها إلى الأرض حتى لا تتحرك . فتمتلئ بالشحم واللحم . ثم إذا باضت فإن البيضة لا تذهب بعيدا .

وقيل لى أن هذا الرجل يعيش على هذه الأوزة . فهذه الأوزة – إذن – هى المصنع الذى ينتج له البيض الذى يشترى به الشاى والسكر والأرز . . وإذا تعب من ضعف إنتاج المصنع باعه واشترى أوزة أخرى . وهكذا – وقلت يومها : أن هذا هو منتهى الفقر !

ولما ذهبت إلى الهند وجدت أناسا لا يجدون السكر وإنما يضعونه طعاما للنمل . لأن النمل مقدس . .

وعندما ذهبت إلى هونج كونج – تلك الجوهرة فى الوحل – حيث يوجد أغنى أغنياء العالم وجدت منطقة عائمة اسمها « ايردين » . . عبارة عن زوارق يعيش فيها الناس بمئات الألوف . الزوارق قذرة متآكلة . . وفى هذه الزوارق يتوالد الناس . ومن بينهم فتيات صغيرات ناعمات جميلات . وهذه الفتيات يخرجن إلى عرض

البحر . . وتتدلى لهن سلالم السفن وتختفى الفتيات فى أحضان البحارة وساعات وأياما . . ويظل الأب والأم فى انتظار عودة الفتيات وقد يتفق الأب مع البحار على إيجار ابنته أسبوعا أو شهرا . . أو على بيعها تماما .

ولما ذهبت إلى جزيرة مندناو فى الفلبين جلست على شاطئ المحيط . . واقتربت الزوارق . . وراح الأطفال الصغار يلقون بأنفسهم تحت الماء ، يستعرضون القدرة على الغطس وضبط النفس . وكنا نلقى لهم بالفلوس . . وينقض الأطفال عليها تحت الماء . . أعجب من ذلك أن طفلا كان يحمل أخاه الذى لم يتجاوز ستة شهور ويغطس به تحت الماء . وكنا نفزع ونصرخ ونرجوه ألا يفعل ذلك . ولكن الطفل الصغير لا يشكو ولا يتململ .

وكلها درجات من الفقر . .

وفى العدد الأخير من مجلة « اليونسكو » صور ومقالات وأرقام عن أناس قد بلغوا غاية الفقر والجوع والعطش واليأس ، وفى طريقهم إلى الانقراض لا محالة . إنهم سكان منطقة واسعة مساحتها أربعة ملايين كيلومتر . هذه المنطقة الصحراوية الجافة لها اسم غريب : الساحل . . يسكنها جماعة من البدو اسمهم الطوارق . . هؤلاء الناس لا يجدون شيئا يبقيهم أحياء . . الماء يعتصرون السحاب . . أو يملأون أفواههم بالرمال المبللة من موريتانيا غربا إلى السودان شرقا وجنوبا . إن شكل الرمال والعواصف ووجوه الناس وعيون الأطفال وصمت الإبل كلها مترادفات تفزعك . .

إننى أعترف أن ريقى قد جف وأنا أقرأ مآسى ندرة الماء — ولا أظن أن العالم الذى يطفح بالخيرات شمالا وجنوبا فى أفريقيا نفسها . لا يستطيع أن ينقل حفنة ماء . إلى الضائعين التائهين الضالين الذين هم وصمة عار فى وجه الإنسانية كلها . . ودعوة بليغة إلى أن يرضى الإنسان بما قسمه الله له — وهو من المؤكد شيء كثير !

دعوة إلى الصدق

إننى أكره التصريحات التى تقول : انتهى أى شىء - إذا كان المقصود هو الخلل أو الفوضى أو التكدس فى أى مكان .

لأنه ليس من الممكن إنهاء أى عيب من العيوب بمجرد أن يصدر قرار وزارى . فليست المشاكل بهذه السهولة . وليست قرارات الوزراء بهذه القوة الخرافية . .

ومن آمال الناس والحكام معا أن ينتهى كل شىء بهذه السرعة . أو يطلع النهار على الشوارع فتكون نظيفة . وعلى الأتوبيسات فتكون نظيفة منظمة مريحة لكل الناس . . أو تدب الحرارة فى التليفون . . كلها آمال طويلة من عشرات السنين عريضة لأنها باتساع البلاد وبعدد الناس .

وليس من حسن التقدير أو وضوح الرؤية أن يقول أى أحد : أن العمارات سوف تتسع لكل المواطنين وأن الأرض الزراعية سوف تتزايد بنسبة عدد السكان . . وأن المدارس والمستشفيات والمواصلات سوف تخصص مقعدا وسريرا لكل مواطن فى أى وقت . وأن ذلك كله سوف يتم فى يوم وليلة .

إن هذا ، تسهيل للمشاكل المعقدة . وهو فى نفس الوقت سوء تقدير . لأن الذى تعانيه مصر ليس من صنع هذا العام ، وإنما من عشرات السنين . والعيب ليس ماديا فقط . وإنما هو عيب معنوى أخلاقى مثلا : أن يمسك طفل طوبة ويلقيها على السيارات . . أن تمسك عقب سيجارة وتلقى به من البلكونة . . أن

تغش فى البيع . . أن تغش فى الامتحانات . . أن تتفرج على كل ما يجرى فى بيتك وشارعك وبلدك والعالم كله من حولك دون أن يهزك شىء . . وأن يكون شعارك ما قاله جحا أو ما قيل على لسان جحا : المهم أن تكون النار بعيدة عن ثوبى . . ولكن لا يهم أن تحرق النار الدنيا كلها !

إن من عيوبنا فى مصر أن ننظر إلى أشياء على أنها مستحيلة التحقيق . وبذلك ينسد باب الأمل أمام أى إنسان يحاول أن يكون له رأى أو له موقف . .

ومن عيوبنا أيضا فى مصر : أن ننظر إلى الاشياء على أنها ممكنة . . وأنه لا يوجد شىء مستحيل . وأن هذا المستحيل سوف يصبح ممكنا بسهولة . . وبمنتهى البساطة . . أى بالفهلوة . . وأنه لا أحد أحسن من المصريين ولا أذكى ولا أخف ولا ألطف ولا اجدع . .

وهذا الفهم المتطرف لأنفسنا ولغيرنا هو أساس الخطأ فى سلوكنا العام . فنحن لا نحترم العلم بدرجة كافية ولا نحترم الخبرة أيضًا . . وإنما نرى أن القليل من العلم مع الكثير من الشطارة يكفى جدا . وأن المثل الذى يقول قيراط حظ أفضل من فدان شطارة — هو مثل مصرى صميم .

ومثل هذه التصريحات هى نوع من الشطارة . . وليس دليلا على العلم ، أو على الفهم ، أو على حسن التقدير وهى تصريحات تليق بالمواطن غير المسئول . أكثر مما تليق بالمواطن المسئول عن الجميع . . ومثل هذه التصريحات تصدم الناس فى الحاكم وفى الكلام ، لأنها لن تتحقق بهذه السرعة . وبعد ذلك يعود إلى الناس الشك القديم فى كل ما يقال . وهذا ما نتمنى أن نتخلص منه جميعا حاكمين ومحكومين !

مرور . . مرور

هناك حلول كثيرة لمشاكل المرور . ولكن لا توجد حلول كاملة . ولا حلول يستريح لها كل الناس . الذين يملكون السيارات والذين يسوقونها والذين يركبونها والذين يفزعون منها . . وكل يوم يزيد عدد السيارات ويزيد عدد المشاة ويضيق الناس بالناس . .

ولكن من بين الحلول التى رأيتها فى بعض المدن الألمانية الهامة مثل بون وكولونيا وهمبورج وميونخ أنهم يمنعون المرور فى « وسط البلد » . أى أنهم يسدون الطرق فى وجه السيارات ويتركون منطقة واسعة بلا سيارات . وينزعون الأرصفة من الشوارع . وتصبح الشوارع بلا أرصفة . . وفى هذه المنطقة يتحرك الناس على راحتهم بلا خوف من أن تدوسهم أية سيارة أو تزعجهم بصوتها . مع أن صوت السيارات من النادر أن تسمعه . . والمرة الوحيدة التى سمعت فيها صوت أجهزة التنبيه كان فى الإذاعة – أى من راديو إحدى السيارات . .

أما هذه المنطقة المنزوعة السيارات وهى التى تعادل سليمان باشا وقصر النيل وبعض عماد الدين وعدلى وثروت ، فقد تحقق لها الهدوء وتحققت الراحة لكل الناس وخلت من الهواء الفاسد . وتحولت كلها إلى سوق هادئة رائجة لكل الناس . . وأصبح من المألوف أن يذهب الناس إلى هذه المنطقة لكى يتمشوا أو للراحة . . فالراحة هى الشىء النادر بين الناس . .

وفى مثل هذه الحالات إذا فكر محافظ القاهرة أو الإسكندرية فى فرض الهدوء

على وسط البلد ، فإن بعض الناس وبسرعة يقول : وكيف يمشى المرضى والعواجيز . . وإذا فرضنا أن شخصا أغمى عليه . . أو مرض وفى حاجة إلى طبيب فكيف نسعفه . .

وهى أسئلة وجيهة وليس لها أى معنى . لأننا نعارض كل فكرة جديدة أو فكرة معقولة قبل أن نفهمها . . ويمكن النظر إلى جميع المشاريع التى تحققت بنجاح . فهى نجحت لأن الذين فكروا فيها نفذوها ولم يسمعوا إلى هذه الاعتراضات لمجرد الاعتراض . . أو الرفض لمجرد ألا ينجح أى مشروع . .

وقد نجحت هذه التجارب تماما لراحة الناس وهدوئهم . وإبعاد السيارات بهوائها المسموم عنهم . . وراحة المرور الذى يختنق ويحتقن فى وسط البلد وقلب البلد . وأحشاء البلد وبذلك تتصلب شرايين المدينة وتصاب حياتها بالسكتة فى النهاية .

اعرف نفسك .. وطاقتك ..

أنت لا تعرف بالضبط ما الذى يمكن أن يخرج منك إذا تدربت على نوع معين من الرياضة . . إن التدريب يخلق منك إنسانا آخر . هذا الانسان الآخر موجود فى داخلك . أنت لا تعرفه . .

مثلا . . مثلا . . إذا طاردك كلب فإنك تهرب منه وتقفز من فوق قناة عريضة . هذه القناة لا تستطيع أن تجتازها فى أية ظروف عادية . . فما الذى حدث ؟ إن إثارة عصبية قد منحتك هذه المقدرة المفاجئة !

إن بعض الناس عندما تشتعل النار فى بيوتهم تكون لديهم شجاعة خارقة . إن رجلا استطاع أن يقتحم النيران وأن ينقذ إحدى بناته . وقد نجت ابنته لأنه قفز من

عشرة أمتار . فمن أين جاءته هذه القوة ؟ إنها قوة كامنة فى جسمه !

إن الذين رأوا المصابين بمرض (الأموك) المعروف فى آسيا يلاحظون أنهم يجرون بسرعة تفوق سرعة الخيول فى بعض الأحيان . إن هذا المرض قد وهبهم طاقات نادرة .

كما أن الذين ينامون مغناطيسيا يتصلبون كأنهم ألواح خشبية . وفى استطاعتهم أن يناموا على كرسيين متباعدين ولفترة طويلة يعجز عنها أكثر الرياضيين قوة . وكذلك المصابون بمرض الكاتاتونيا . . فمن أين جاءتهم هذه الصلابة ؟ إنها خرجت من أجسامهم !

لقد أثبت التحليل الطبى أن عظام بعض الرياضيين فى صلابة الأسمنت المسلح . وهؤلاء الرياضيون لا يتناولون أطعمة نادرة . وإنما ما يتناوله الناس . فمن أين جاءت هذه القوة الخرسانية ؟ من أجسامهم طبعا !

فليس فى أجسامنا قوى عضلية فقط . . وإنما فينا قدرات وطاقات نفسية لا حدود لها . . ولكننا لا نجربها . . ولكننا لا نمارسها . .
لا نتيح لها الفرصة لكى تبرز فنحن أقدر على أن نتحمل أكثر مما نتصور . . ونحن أقدر على أن نعمل أكثر مما نتصور . .

ولسنا فى حاجة إلى كل الأطباق التى نأكلها ، ولسنا فى حاجة إلى كل الساعات التى ننامها ، فنحن نجهل أننا أقوياء !

الإنسان حيوان مدمِّر !

الإنسان هو أقوى الحيوانات ، لأنه عاقل فقط – فقد استطاع بعقله أن يتغلب على كثير من مصاعب الطبيعة التى حوله : البرودة الحرارة والجوع والمرض والمسافات . وعندما يفقد الإنسان عقله فإنه يصبح ضعيفا كأى حيوان آخر .

ومع ذلك فهناك حشرات استطاعت أن تقاوم كل عناصر الطبيعة وأن تتغلب عليها . فالخنافس – مثلا – وهى أكثر الحشرات انتشارا فى العالم وأكثرها تنوعا ، استطاعت أن تبقى بملايين البلايين فى كل مكان ، لأنها قادرة على التكاثر وعلى التعايش مع البيئات المختلفة . ولكن هذه الخنافس وغيرها من الحشرات والحيوانات لم تتقدم فى شىء آخر . فهى هى منذ ظهرت على الأرض من ملايين السنين لا حياتها تغيرت ولا أشكالها تطورت ولا مساكنها تبدلت . . على عكس الإنسان . .

والإنسان يعرف معظم أسباب مرضه ومعظم أسباب قوته . ويعرف أنه سيموت لا محالة ولكنه يحاول أن يقاوم الموت . بينما هناك حيوانات قد اكتسبت عبر ملايين السنين مناعة طبيعية . ولاتزال هذه المناعة سرا لايعرفه أحد .

فمثلا : العقارب تعتبر من أكثر الكائنات تحملا للأشعة الكونية والأشعة الذرية . وإذا كانت هناك أشعة ذرية قادرة على قتل الإنسان فى دقيقة . فإن هذه الاشعة لا تقتل العقرب إذا تعرض لنفس الأشعة عشر سنوات .

ولو أن قنبلة هيروشيما التى ألقاها الأمريكان على اليابان قد انطلقت أشعتها على

مستعمرة للعقارب فإن هذه الاشعة ستقتل كل كائن حى فى طريقها ، وتبقى العقارب كأن هذه الأشعة نسيم عليل هزها برفق . .

وقد اكتشف أحد العلماء الفرنسيين أن هناك نوعا من العقارب فى صحراء الجزائر لا تقتلها الأشعة الذرية المعروفة حتى الآن . فهل سبب ذلك أن بها نسبة عالية من السموم؟ وبذلك تكون السموم سلاحا لوقايتها من الإنسان ومن الحيوان . وفى نفس الوقت سلاحا لوقايتها ضد أحدث الأسلحة ؟ ربما .

والعلماء – طبعا – سيقتلون مئات العقارب لمعرفة سر السموم التى تحملها للاستفادة منها فى وقاية الإنسان من العقارب ومن القنابل الذرية . فإذا نجح العلماء فى ذلك فسوف يبحث علماء آخرون عن وسيلة للقضاء على هذه الأسلحة الوقائية ويتفننون فى ابتداع أنواع من القنابل تحطم المناعة المستخرجة من العقارب .

كأنه مكتوب على الإنسان أن يعيش فى خطر . . فى خوف من الإنسان . وكلما اكتشف الإنسان سلاحا ، راح يفتش عن الوقاية منه . . فإذا اهتدى إلى الوقاية راح يبحث عن سلاح يحطم الوقاية . . كأن الحياة حرب علمية تدمر الإنسان بالخوف من الوقاية وبالخوف من العلاج . .

الرحمة أيها الإنسان

جربت سنوات طويلة ألا أذوق اللحم . . ولا أعرف بالضبط لماذا فعلت ذلك ، أو اضطررت إلى أن أمتنع عن تناوله ، وكل ما أذكره الآن ليس شيئا مقنعا . . ولكن الذى يفعله الإنسان وهو طفل لا يقنعه وهو كبير . . ولا داعى لأن أذكر هذه الأسباب . ولكن أسهل ما يقال إننى صدمت نفسيا . . وكان من أثر الصدمة أننى كنت أنظر إلى اللحم على أنه نوع من جلد الأحذية . أو على أنه بقايا

جثة حيوان ذبحناه لأسباب غير إنسانية .

وأنه ليس من الرحمة قتل هذه الكائنات البريئة . حتى لو كان غيرنا سوف يفعل ذلك — ووجدت مثل هذه المعانى مقنعة لشاب فى الرابعة عشرة من عمره ! .

ولا أذكر الآن كيف عدت إلى تناول اللحم من جديد . لعلى نسيت . . أو لعلى وجدت أن فى الحياة أشياء كثيرة أقسى من أن يذبح الإنسان حيوانا . ووجدت من الناس من يذبح الناس ليعيش . ووجدت أن الإنسان فى هذه الحياة : قاتل أو قتيل . وأن الناس ضحايا الناس . وأن هذه هى الحياة . . وأن الذى يفعله الجزار كل يوم ، يفعله أى إنسان آخر . وأن الجميع جزارون فى سلخانة اسمها الحياة ، وأن أكثر أعمال الناس تطورا وعنفا هو الحروب التى يستخدم فيها الإنسان عبقريته فى القتل والدمار ، مستعينا بأحدث الأجهزة ، فى جمع المعلومات وتخريب العقول وتخويف القلوب . . وأن الجزار بالقياس إلى هؤلاء جميعا . إنسان من أهل الكهف . . وأن ضحاياه حيوانات تساعد فى القضاء على الجوع . وإن ذبح الحيوان أهون بكثير جدا من ذبح الأطفال الأبرياء والمرضى . . ويبدو أن هذه المعانى أقنعتنى .

وقد قررت أن أمتنع عن أكل اللحوم . .ولابد أن يكون هذا القرار سببه أنى لا أجد لها طعما خاصا . ولا هى ضرورة حياة أو موت . وأنه ليس صحيحا أن اللحم هو الذى يبقى على اللحم ، وليس صحيحا أن الأبقار والجواميس والأغنام هى التى تجعل منى إنسانًا عاقلا قادرا على أن يقوم بعمل إنسانى نبيل أو كريم . . وأن اللحم ليس سيفا على رقاب العباد . . وأن التعب والقرف والعذاب الذى فى حياتنا لا ينقصه جزار أو تاجر جشع يفعل بنا ما يشاء . . وأن علماءنا يستطيعون أن ينشروا لنا فى الصحف قائمة صغيرة بالأطعمة التى تعوضنا عن أكل اللحوم . .

وببساطة ليس هذا قرارا فلسفيا . .ولكنه قرار عادى جدا يستطيع أى إنسان أن يفعله . . ولن يكون وحده فى هذه الدنيا فإن أكثر سكان الأرض لا يأكلون اللحوم : ٦٠٠ مليون هندى ، و ٤٠٠ مليون طفل ومليون مريض وألف مليون فقير !

قالوا :

اسمع يا أنت ! يقولها لك من يعرفك أيضاً !
الحكمة : قرار . . والجمال : وعد !
النحلة فى فمها عسل وفى ذيلها سم !

عالم الحيوان

سوف تكون هناك حيوانات ضالة فى الشوارع . وفى القرى أكثر . هناك قطط وكلاب . وهناك كائنات أخرى ليس من السهل القضاء عليها مثل الفئران والصراصير وبقية الحشرات التى تعيش قريبة جدا من الإنسان ومن طعام وملابس الإنسان . .

ولكن سوف يجىء اليوم – الذى جاء على كثير من الدول الأوروبية – فتنقرض هذه الكائنات الضارة والمتطفلة على حياة الإنسان . وفى العصور الوسطى تخيل الناس أن طفلا صغيرا راح يمسك مزمارا . ووراء هذا الطفل خرجت كل الفئران ونزلت معه إلى النهر وماتت جميعا . وهذا الطفل الذى يزمر كان اسمه : زمار هاملن !

وفى بلاد كثيرة يقتلون هذه الكائنات الضارة بالمبيدات المعروفة وأحيانا

بالموجات الضوئية المتناهية القصر. وفى اليابان يقتلونها بالموسيقى. ونحن نتطلع إلى اليوم الذى يتحول العمال فى الحقول إلى فرق فنون شعبية تغنى وترقص من أجل القضاء على دودة القطن. وفرق شعبية أخرى من أجل أن تبقى الغربان وأبو قردان وبقية الطيور أصدقاء الفلاح..

ولكن لم أقرأ عن وسيلة للقضاء على الكلاب الضالة فى مصر. ففى الليل تجىء أفواج من الكلاب تنبح الأشباح، أو تتوهم أصواتا أو روائح بعيدة وتعوى عليها.. والنتيجة كل ليلة فى معظم أحياء القاهرة: ان تتوقف كل الأصوات فى كل مكان ولا يبقى إلا صوت الكلاب.. وأصوات المفاتيح الصدئة تدخل الأبواب وبعدها تتعالى الصيحات أو الخناقات ليلا لبعض الأزواج.. وعندما يهدأ كل شىء تنشط هذه الكلاب مرة أخرى.

وكنت أعرف أننا نقتل الكلاب بالضرب أو بالنار أو نجمعها فى عربات ونقتلها بعيدا عن عيون وآذان الناس.. وكنت أعرف أننا نضع لها السموم فى الطعام مثل مادة الاستركنين.

وأقول «كنت» لأننى لا أدرى ما الذى أصبح صعبا أو عسيرا الآن.. بعد أن حدث هذا الانفجار السكانى للكلاب والقطط.

إنهم فى حديقة حيوانات الجيزة لديهم أكثر من مليون فأر ولا يعرفون طريقة علمية للقضاء عليها.. فالفئران تأكل طعام الحيوانات. ويخافون إذا وضعوا السم للفئران أن تموت فى حظائر الحيوانات وتأكلها الحيوانات وتموت الحيوانات وتعيش الفئران..

وأعتقد أن هذا الخوف لا وجود له خارج حديقة الحيوانات مادام الغرض هو وقف الانفجار السكانى للكلاب والقطط فقط. وسوف يظل الناس يتوجعون من عواء الكلاب ومواء القطط وأشياء أخرى. مادامت ليست فى خطورة فئران

حديقة الحيوانات – فالحيوانات فى الحديقة أغلى من الحيوانات الأخرى خارج الحديقة !

قالوا .....

عندما نزور إنسانا فنحن نضيع الوقت – وقت الآخرين !
من أجل يد ناعمة ، يجب أن تعمل أيد قذرة كثيرة !
الحياة تعزلنا عن الأقلية ، والموت يضمنا إلى الأغلبية !

اليهود فى كل مكان

من البديهيات الآن وبعد كل ما حدث فى العالم شرقا وغربا أن يقال : أن أى يهودى صهيونى . ما فى ذلك شك . فاليهودى الرأسمالى كاليهودى الشيوعى ، كلاهما مخلص لإسرائيل ، أكثر من إخلاصه لوطنه الأم . لأن إسرائيل هى وطنه الحقيقى . هى حلم ألوف السنين . وغير صحيح أن يقال إن أى يهودى مزدوج الولاء . أى أنه على ولاء لأمريكا وإسرائيل ، وروسيا وإسرائيل . كذب وخداع . فولاؤه أولا وقبل أى إحساس آخر إلى إسرائيل . ولذلك ترك الأمريكان بلادهم ليعيشوا فى إسرائيل . وترك الشيوعيون فى كل الدول الاشتراكية ، وفى مقدمتها روسيا ليعيشوا فى إسرائيل . وإذا كان بعض اليهود الروس قد عادوا إلى روسيا مرة أخرى ، فهذا يحدث بالاتفاق وعلى سبيل الدعاية . حتى لا يقال إن روسيا هى جهنم الله فى أرضه ، وأن إسرائيل هى جنة الله . فكل ذلك نوع من الأكاذيب المتفق عليها .

ويوم نكست مصر رقص الشيوعيون فى رومانيا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا وفى

روسيا أيضا . لا لشيء إلا لأنهم يهود ، أيا كانت مواقعهم الجغرافية وأنظمتهم السياسية ..

وقد حدث فى سنة ١٩٥٩ أن انتشرت علامات الصليب المعقوف النازى على مقابر اليهود ومعابدهم فى أوروبا وأمريكا . وكانت جولدا مائير وزيرة لخارجية إسرائيل . فأرسلت خطاب احتجاج لكل الدول التى انتشرت فيها علامات النازى ونبهت إلى أن هذا مد عدائى ضد السامية ، أى ضد اليهود . وفى رسالتها تقول : إن الحكومة والشعب ينظرون بفزع إلى هذا الوباء الجديد الذى يذكرهم بماضيهم الأليم . وعلى الدول التى ظهرت فيها هذه العلامة ، بأحزابها ومجالسها البرلمانية وأجهزة إعلامها أن تعلم أن هذا العداء لليهود ، ظاهرة خطيرة . وتجب معالجة هذه الظاهرة الخطيرة بمنتهى العنف » . وهذه الرسالة غير تقليدية ولا مهذبة . فليس من حق إسرائيل أن تتدخل فى شئون الدول الأخرى ، بل تترك لها أسلوب معالجتها . وقد احتج اليهود فى كل هذه الدول على جولدا مائير لأنها أحرجتهم فى وطنهم الام . وأنه كان الواجب عليها أن تترك لهم مهمة التفاهم مع الحكومات . ولكن جولدا مائير ذكرت ما يتوقعه كل الناس منها قالت : أنه حيث يوجد مواطن يهودى واحد فى أى بلد فأنا مسئولة عنه . وإذا تضايق اليهود من ذلك ، فى أى مكان فى العالم ، فليشربوا من البحر !

وجولدا مائير كانت صريحة فى ذلك . وأعتقد أن اليهود أيضا يسعدهم ذلك . فهم فى الدرجة الأولى مخلصون لإسرائيل يدفعون لها ويدافعون عنها . ولا يجرؤ واحد — لأنه لا داعى لذلك — أن يعارض حلمه القديم : إسرائيل ..

ولم يكتف اليهود بذلك بل إنهم انقسموا إلى ثلاثين أو أربعين حزبا وطائفة . ومنهم من يدعى كراهية إسرائيل المتعصبة دينيا وعنصريا ، أو تلك الترسانة العسكرية .. لعل أحدا أن يقول إن فى إسرائيل معارضة لها . وهناك يهود يتظاهرون

بالتعصب للعرب . منتهى الكذب طبعا .

وهم بذلك يحيرون الشعوب فيهم . ومن خلال هذه الحيرة تدوخ الشعوب . ولكنهم فى كل مكان فى العالم صف واحد وراء العسكرية العنصرية المتعصبة فى إسرائيل ، وضد العرب وكل الشعوب الأخرى .. لأن إسرائيل أولا وبعدها طوفان من الدم والدمار .

دائما .. حائط المبكى

ان اليهود بعد أن انهدم عليهم معبد سليمان أكثر من مرة لم ينسوا ذلك ألوف السنين .. ففى كل بيت - قبل سنة ١٩٦٧ - كانوا يتركون به كسرا فى الحائط أو فى السقف .. أو يضعون حجرا .. أو صورة لجدار منهار .. ليتذكروا دائما معبد سليمان . وليتذكروا أنه لم يعد منه غير حائط المبكى . وأنهم لابد أن يستردوه .. وقد رأيت حائط المبكى .. ولم يكن إلا جدارا قديما تسللت من بين أحجاره الأعشاب البرية .. وكان الطريق إلى حائط المبكى حارة ضيقة جدا .. وكان من عادة اليهود الذين يزورون الحائط أن يقبلوه وأن يوشوشوا الحجر وأن يمسحوا به دموعهم .. وأن يكتبوا مطالبهم وأحلامهم فى أوراق صغيرة ويتركوها بين أحجار حائط المبكى .

ويوم دخل اليهود القدس تزاحموا على حائط المبكى وألقوا بأنفسهم عليه .. وعنده وأمامه وفى ترابه وعليه .. إنه حلم ألوف السنين .. وجاء رئيس دولتهم فى ذلك الوقت وهو رجل ملحد ، ولكن تمسح فى الحجر .. ومن ورائه الوزراء والضباط . ولم يكن ذلك إلا حائطا فى معبد متواضع المساحة والشكل .. ولكنه الحلم والأمل والرمز ! .

ويوم تزوج ابنه وابن موشى ديان فى مدينة غزة . انكسرت الزجاجات والأكواب تحت أقدام الجميع . ولم يكن ذلك إلا رمزا للمعبد الذى انهدم .. والذى يجب ألا ينساه أحد فى مأتم أو فرح !

إنهم يستحقون العقاب

مئات الألوف من الشبان سافروا ويسافرون هذا العام إلى الخارج .. والسفر إلى الخارج هو بعثة دراسية حرة . ولأنها حرة فهى ممتعة . ولن تظهر نتائجها اليوم أو غدا . ولكن سوف تظهر نتائجها حتما . فهؤلاء الشبان هم رجال الغد . مدرسوه ومهندسوه وأطباؤه وجنوده وضباطه وحكامه . وأزواجه وآباؤه .. وما داموا قد رأوا الدنيا ، فانهم لن يحرموا أولادهم منها، ومادامو قد رأوا الأفضل فسوف يتطلعون إلى كل ما هو أروع وأنفع لبلادهم .. لمصر ومستقبل مصر.

وسوف يقارنون بين بلادنا والبلاد الأخرى . وسوف يعرفون لماذا تتقدم الشعوب ، ولماذا هى بيوتهم نظيفة وشوارعهم وملابسهم ، ومصانعهم .. ولماذا هم متحضرون . ثم كيف نكون مثلهم . وسوف يدركون أن الإنسان هو الإنسان فى كل مكان . وأنه من الممكن أن يكون متحضرا . وأن الوطنية لها ألف معنى . وليس معناها فقط أن يتحول الإنسان إلى لسان طويل يدافع عن بلده . وإنما الوطنية عمل متواصل فى أى موقع . فالناس خارج مصر يفعلون ذلك . وليست للناس قدرات خارقة . ولكنهم أناس مثلنا . إذا تعلموا شيئا ثم آمنوا به وطبقوه أصبحت قدراتهم خارقة .

ولأنهم شبان صغار ، ولأن تجاربهم فى الحياة المستقلة محدودة ، لذلك من الممكن أن يخطئوا – ولا أحد لا يخطئ . وقد وقعنا فى مآزق كثيرة عندما سافرنا إلى

الخارج لأول مرة . ولكن الإنسان يتعلم من أخطائه ومن أخطاء الآخرين . وهى أخطاء يقع فيها بحسن نية . وهى أخطاء ضرورية بالنسبة للتجربة الأولى وللرحلة الأولى . ولكن هناك بعض الشبان عندما يجدون انفسهم وحدهم فإنهم ينفلتون تماما . ولا أحد يستطيع أن يوقفهم . فإذا حاول أحد تمادوا فى ذلك . وهذا الطراز من الشبان هو الذى يضر بنفسه وبسمعة بلده . وهو الذى يستحق العقوبة . وأنا أعرف عشرات الأمثلة الضارة .

ولذلك فأنا أؤيد معاقبة كل من يسىء إلى مصر .. وأقصى العقوبة ألا تسمح له بالسفر مرة أخرى .. وأعتقد ان الحرمان من السفر هو أقسى درجات العقاب لشاب رأى ويريد أن يرى أكثر .. فليس من حق أى شاب أن يسىء إلى كل شباب مصر وإلى كل مصر. فهذه جريمة لا تستحقها مصر من واحد من أبنائها !

أوجاع الشيخوخة

ما الذى تريده لشيخوختك ؟ هل تريد أن تقضى هذه الشيخوخة فى المدينة .. أو فى الريف . فى بيت صغير حوله حديقة . بين أولادك أو بين أحفادك .. فى الصلاة .. فى القراءة .. فى النوم .. فى الانسحاب من الحياة نهائيا ؟ .

ربما لم يخطر على بالك هذا السؤال لأنك ما تزال شابا أو لأنك بلغت الشيخوخة ولا تريد أن تعترف بها . ومن الأفضل ألا تعترف بأنك شيخ . فقد استطاع الكثيرون من الشيوخ أن يحققوا المعجزات فى الادب والفن والعلم والاكتشافات والمغامرات . وكان هؤلاء الشيوخ . قد أخفوا قدراتهم الخارقة على شكل قوى احتياطية .. وعندما انفقوا كل قدراتهم الظاهرية ، استدعوا هذه القوى الاحتياطية. فاعادت إليهم شبابهم العاقل . بعد أن بددوا شبابهم المجنون قبل الشيخوخة !

إننا – الذين لم يشيخوا بعد – نتصور أن الشيخوخة هى انسحاب من الحياة . انسحاب يائس . انسحاب الإنسان المخدوع المغرور . وأن الشيخوخة هى الإدراك الحقيقى للحياة وهدف الحياة ، وأنها فترة الانتظار القانع الذى يسبق الموت . ولكننا عندما نفكر فى الشيخوخة الآن ننظر إليها كرجال متعبين مرهقين خادعين ومخدوعين كارهين ومكروهين .. وأن نتمنى أن نستريح من هذا الصراع بالزهد فى الدنيا كلها .

ولكن الشيوخ لا يفكرون فى ذلك أنهم يتمنون أن تعود بهم المعجزة إلى حياتهم من جديد . مهما كانت متاعبهم . ومهما كانت أوجاعهم . فأوجاع الشباب يشفيها النوم . ومتاعب الشباب يخففها النسيان . ولكن أوجاع الشيوخ لا يخففها شىء وأمراض الشيخوخة لا علاج لها .

هل تعرف ما الذى يفعله الشيوخ هنا فى سويسرا ؟ إنهم يشتغلون فى ترويض الكلاب وفى العناية بالأطفال بدلا من الأمهات .. وبعضهم يذهب إلى مدارس الحلاقين ويجلس لكى يتمرن فيه الطلبة مقابل مبلغ من المال !

فعندما أكون شيخا سأكون نادما . ولاشك على أننى لم أستمتع بشباب القلب والعقل فقد ولدت لأحبو على أبواب الشيخوخة !

شىء من الجدية . .

أذكر عبارة للبابا يوحنا الثالث والعشرين يقول فيها : الايطاليون يخربون بيوتهم بالنساء والقمار والزراعة وقد اختارت اسرتى أطول الطرق إلى ذلك !

ولو تساءلنا ما الذى يخرب بيت المصريين أو يفسد حياتهم كلها لقلت : التواكل والاستخفاف والزهق .. فالمصريون يزهقون بسرعة . أو ليس عندهم صبر

على الاستمرار . فلا يكاد الواحد منهم يبدأ مشروعا بحماس ، حتى تنخفض درجة حرارته ولا يكمل ما بدأه . ولذلك فهناك مشاريع كثيرة التهبت لها قلوب الناس ، ولم تر النور ..

وربما هذا هو الذى قصده الشاعر شوقى عندما وصف مصر قال : كل شيء فيك ينسى بعد حين – أى يتذكره الناس بحرارة ، ثم بنفس الحرارة ينسونه .. ولكن لماذا ؟

لأن روح الجدية ليست متوفرة . فإذا اعطيت نفس الفكرة أو نفس المشروع لواحد أوروبى فإنه يقترب من الفكرة بحذر . ويمسك ورقة وقلما ويسأل : كيف يمكن أن يفهمها ؟ ومن الذى يمكن أن يعتمد عليهم ؟ وهل هناك كتب للقراءة عنها ؟ وكم نحتاج من الوقت ومن المال ؟ ومتى يبدأ فى ذلك .. وما هى المشاريع الأخرى المتشابهة أو المتعارضة ليقارن بين الجميع ويبحث لماذا لم تنجح وكيف تنجح .. لأنه من الضرورى أن ينجح أى إنسان ولكن ليس غريبا علينا أن نجد واحدا منا يقول لك : يا عمى .. يا سيدى .. اقفل الباب الذى يجيء منه الريح إلخ .

إذن كيف نتصور أن تنحل مشكلة أو كيف يمكن أن ينهض مشروع ، أو تنهض مصر كلها .. لقد تواكلنا كثيرا جدا . واعتمدنا على غيرنا وقد يكون هذا الغير هو الأجنبى أو هو المحتل لبلادنا .. أو يكون هذا الغير هو الدولة . مع أن الدولة هى الناس . مثلا : إلقاء الزبالة فى الشوارع .. نظافة الجدران .. احترام القانون أو النظام .. قفل حنفيات المياه .. اقفال البوتاجاز .. من الذى يجب أن يفعل ذلك . الجواب : نحن . ولكننا بدلا من أن نقول لأنفسنا أن ترك المياه مفتوحة ليلا ونهارا يرهق الدولة ، فإننا نقول : الدولة يجب أن توفر الماء ومحطات ضخ المياه .. وأن تجعل أنابيب البوتوجاز محكمة وأن يكون لكل أنبوبة « منظم » دقيق مستورد .

ولابد من تغيير هذه العيوب الأخلاقية والاجتماعية والتربوية حتى لا تخرب مصر ونتهم غيرنا مع أن المتهم هو أنا وأنت !

ملاحظات صغيرة .. ولكن . !

مصر كالقمر : من بعيد أجمل ..

فقد جاء إلى القاهرة عالم مصرى بعد عشرين عاما أمضاها فى جامعات أوربا . إنه لم يكن بعيدا جدا عن مصر . وإنما كان يقرأ ويسمع ويتلهف ويتمنى لو يستطيع شيئا كثيرا من أجل مصر. وحمل كتبه وحزم شنطه وجاء إلى القاهرة فى إجازة . وكان منظر الأرض والبيوت والأهرامات من الطائرة شيئا ساحرا . انها مصر وطنه وأمنه وأمله .. وفى المطار كان يتحرك بسرعة ألف عذر فى الساعة . فكل ما يوجع عينيه يجد له سببا معقولا ، ويرى أن مصر مرت بمحنة طويلة عريضة . وأنها ما تزال تعانى وسوف تبقى طويلا مرهقة الأيدى والأرجل والمعدة والقلب .

وفى المطار كاد صبره ينفد عندما حاول أن يناقش الأشياء الصغيرة مع بعض الموظفين . مثلا : لماذا لا توضع لافتة تقول للناس : ان حقائب شركة الطيران الفلانية سوف تكون على هذا الجانب ، وحقائب شركة الطيران الأخرى سوف تكون على الجانب الثانى . وهذا يمنع اختلاط مئات من المسافرين الأجانب والمصريين .. إن هذه ملحوظة صغيرة ويمكن تحقيقها فورا ، ولكن أحدا لم يهتم كثيرا بما قال . فذهب إلى أبعد من ذلك وسأل : إلى من أتوجه إذا كنت أرى ضرورة كتابة هذه اللافتة ؟ .

ولم يفهم معنى أن ترتفع الأيدى إلى أعلى ويتراجع الرأس إلى الوراء ، إجابة عن هذا السؤال .. فهل معناها : أن الحل عند الله .. أو معناها : كان غيرك

أشطر .. أو هل معناها : أن أحدا لا يهمه الأمر ، فحاول أن تسكت .. أو عد من حيث أتيت !

وكان العذر المقبول الذى اختاره واستراح له هو أن الموظفين مرهقون تماما .. ووجوه الناس تدل على أن شيئا عميقا قد طرأ عليهم .. لم يعد الناس ضاحكين . ولم يعد عندهم ذلك الشىء السحرى الذى كان يجعلهم يتحركون بسرعة ويفعلون ما هو أفضل .

ولما روى العالم المصرى عددا كبيرا من الملاحظات على الذى رآه فى المطار نفد حماسه تماما عندما لم يجد أى صدى لما قاله .. ولو ظل يردده أياما متوالية . إذن فالناس يعرفون ذلك كله . سمعوه . قرأوه . زهقوا منه . ولذلك فلا يدهشهم شىء .. ولا يزعجهم شىء . وليست عندهم أية رغبة فى حل مشكلة أو علاج هذا الخلل فى كل مكان . فمن الذى يعيد إلى هذه المشاكل خطورتها ؟ من الذى يفضح هذه العيوب الإدارية والاجتماعية والأخلاقية فيجعلها بارزة أمام كل عين ؟ . لابد أن يجىء مصرى غيور من الخارج فيرى أوضح وأوقع ويقول للناس : هنا .. وهناك !

ولكنه فعل ذلك ، فلم يهتم أحد به أو بما يقول !

وذهب الرجل إلى عشرات من زملاء الدراسة والأصدقاء والأقارب وقال وأعاد ما قاله عشرات المرات .. حتى تعب وزهق — كأنه استرد الجنسية المصرية المرهقة المكدودة . وبعد ؟

إن حاجتنا هائلة إلى هؤلاء المصريين المخلصين فى نقدهم وتصميمهم وأملهم فى علاج كل عيب فى مصر أنهم يتعذبون بالحب ، ونحن نتعذب بالعجز .. فمصر على البعد أجمل ، ولكنها على القرب جميلة وغالية وأمانة ورسالة .

مصر . . الشباب . .

جلست مع عدد من المصريين عندهم أمل !

فالأمل هو أعظم ماكياج أعطى للإنسان . إنه يجعل الإنسان رائعا : أكثر حيوية وأكثر شبابا وأشد إقبالا على الدنيا .. أنه يصبغ الوجه بألوان وردية لامعة .. ويضع فى العينين شجاعة وفى العقل قدرة على الفهم السليم .. ثم أن الأمل يعطى الإنسان هذه الطاقة العجيبة على التضحية بكل شيء بما فى ذلك الأمل !

هؤلاء المصريون كانوا فى سويسرا وفى أمريكا . عندهم ثقافة وتجربة وحب شديد لمصر . ويريدون أن يروا مصر فى رخاء أمريكا ، وفى صفاء سويسرا وفى علم ألمانيا وفى حرية فرنسا وفى طيبة مصر فى كل العصور ويسألون : كيف تسكتون عن فلان الذى أخطأ . كيف لا يثور عليه الناس . كيف لا يلعنه من لا يستطيع أن يحاكمه . وكيف لا يعدمه من يستطيع محاكمته . إن مصر فى حاجة إلى أناس يقولون : « لا » بشجاعة ويقولون « نعم » بشجاعة أيضا .

ونظرت إلى هذه الوجوه الشابة فى الأربعين وأندهش وتتضاعف دهشتى .. كيف أن أحدا ما يزال يقول شيئا من ذلك ؟ كيف أن أحدا عاش سنوات طويلة سعيدا هانئا غنيا فى بلاد أخرى ويريد أن يعمل من جديد فى مصر فى ظروف أقسى وأعقد .. كيف أن الذى يضغط على زرار فيجد كل شيء حاضرا جاهزا دقيقا مضبوطا بلا ضوضاء ، يريد أن يدق الأبواب فترد أو لا ترد .. كيف أن هذه النضارة تبحث عن الذبول والتجعدات والأرق والضعف من جديد .. ما اسم هذا

الجنون ؟ ما اسم هذه التضحيات ؟

ليس لها غير اسم واحد : ان هؤلاء الناس عندهم فائض أمل .. وأنهم جاءوا إلى مصر يريدون أن يشيعوا الحياة بين الناس .. يريدون أن يكون كل شيء ممكنا .. فمصر تستطيع أن تسترد ودائعها من الرجال في الخارج .. وأن ابناءها الذين تعلموا وتدربوا يستطيعون أن يكونوا جيشا من الخبراء والعلماء والتجار من أجل مصر التي اختارت التفتح والانفتاح على الدنيا التي تعيش حولنا ، وتموت بيننا ..

وكنا نضحك ونقول : من أين هبط هؤلاء الشبان .. كأنهم هبطوا من كواكب أخرى .. لإصلاح كوكب الأرض . واختاروا مصر بالذات .. فقد حدث في التاريخ من ألوف السنين أن هاجرت كائنات أكثر عقلا وأكثر تطورا إلى كوكب الأرض .. وتركوا آثارا تدل عليهم .. ثم رحلوا عن هذه الأرض لأسباب لا نعرفها بعد .. أو أنهم هاجروا إلى كوكب الأرض .. كما هاجر أبناء قارة أوربا إلى أمريكا وعمروها .. وظل سكان أمريكا الأصليون هنودا حمرا .. أو كما هاجر أبناء انجلترا إلى قارة استراليا ..

لقد احسست أن هؤلاء الشبان (اخوان كامل) — الدكاترة إبراهيم ومحمد وحلمي — فواكه « اطازة » نزلت من الشجر فورا .. كلها لمعان ونضارة ونموذج لمئات الألوف من شباب مصر الناجحين .. ففيهم أمل مصر ! .

مسافة العلم والعمل

لا تستطيع إلا أن تقارن بين مصر وبين أى بلد آخر تزوره ، وإلا أن تكون ظالما ، تظلم البلد ثم تظلم مصر. ونحن ميالون بطبعنا إلىٰ أن نظلم مصر. أى نظلم أنفسنا . لنزداد أسى وحزنا ، وهذا الاسى أو الحزن هو المزاج العام للمصريين .

ففى النمسا مثلا .. يمكن أن نقول : هه .. فاضل لنا كثير جدا .. أين نحن من هؤلاء .. إنهم من ثلاثة قرون كان عندهم عبقرى اسمه موتسارت .. عبقرى بكل الموازين والمقاييس ، شاب مات عن ٣٦ سنة بعد أن ترك للإنسان ٦٠٠ عمل موسيقى ، وفى كل مرة تسمعه تجد شيئا جديدا .. كان سابقا لعصره متقدما على كل الدنيا .. ونحن ..

ولا نكاد نقول « ونحن » هذا حتى ينفجر المصريون كل واحد يضع يده على وجع ويقول : آه المواصلات .. الجمعيات .. الذمة .. الفساد .. الانحراف .. اليهود والقذافى .. والمستشفيات والدكاترة .. ومواعيد الطائرات .. ولون أحجار مطار القاهرة .. وشوارع مصر.

وبسرعة ينقلب الكلام إلى مأساة .. وإلى حفلة تأبين لحاضر مصر ومستقبلها . وبالاختصار لا أمل فى شىء ، وأنه من الأفضل لنا جميعا أن نختار بسرعة بين البحر الأبيض والبحر الأحمر والبحر الأسود وندفن أنفسنا فيه . وبسرعة جدا وكان هذا سوف يحدث يقول الجميع : ندفن أنفسنا فى أى مكان إلا البحر الأسود !

ولا معنى طبعا من أن نتناقش فى قضية فلسفية وهى : أن الموت هو الموت ..

فى البحر الأسود أو فى البحر الكاريبى . ولا يهم الميت أن يدفن ، لأنه لا إحساس عند الميت بشىء . وإذا مت أنا ماتت الدنيا كلها فى رأسى وفى قلبى فدنياى تموت معى .

ويعود الكلام بشكل أكثر اعتدالا وتعقلا وظلما لأنفسنا فتقول مثلا : ولكن سيد درويش ..

إذن هو سيد درويش المقابل للموسيقار موتسارت ، طبعا ولماذا لا ؟ ان سيد درويش على قدرنا . نحن فى عالم الموسيقى لم نتجاوز مرحلة سيد درويش . إنه مطرب وملحن . وكل الذين ظهروا بعد وقبل سيد درويش هم مطربون ومؤلفون للأغنية القصيرة ، ولا يوجد عندنا موسيقار : فنحن لا نعرف السيمفونية ولا نستسيغ الأوبرا .هذا وزننا وهذا مزاجنا ..

وفى بلد الموسيقار موتسارت ظهر عشرات المؤلفين العظام فى الموسيقى وفى الشعر وفى الأدب والعلوم وفى السياسة . والمانيا هى الدولة الأم للنمسا فظهر فيها العباقرة بالعشرات فى وقت واحد .. بل لم تختف العبقرية الفذة فى كل فروع المعرفة . فالموسيقيون من أمثال بتهوفن بالعشرات . والشعراء من مثل جيته بالعشرات والفلاسفة من مثل كنت بالعشرينات .. والعلماء من طراز همبولت بالثلاثينات ..

فنحن دولة صغرى ، تاريخها عظيم طويل عريض ، ولكنها بمقاييس الفن والأدب والعلم العالمية متواضعة . طبعا رأينا فى أنفسنا مختلف تماما أو على الأصح متطرف . فهناك من يقول إن مصر أم الدنيا ومن يقول إن الدنيا كلها أم مصر..

ولكن إذا أردت أن تكون معتدلا ومعقولا وغير مريح للملايين فقل أن المسافة بيننا وبين الدول الأوروبية المتحضرة مئات السنين بشرط واحد أن نتقدم نحن فورا وعلى كل المستويات وأن يتوقفوا هم .

هل هناك أمل ؟ طبعا هناك أمل بشرط أن يعمل كل الناس ويكون العمل عن علم . أى لابد أن يتعلم الناس ويعملوا . وإذا لم يتعلموا ذلك تجمدوا وماتوا أو صاروا هنودا حمرا فى الشرق الأوسط ! .

عظماء لكل العصور

ظاهرة عظيمة أن يظهر رجل عظيم فى مجتمع . فيضيء للناس ويهديهم . ويسير الناس وراءه . هذه المسيرة نقطة تحول فى حياة الناس . والعظماء أنواع :

عظماء يصنعون تاريخهم . وعظماء يصنعهم التاريخ . أى أناس يغيرون الظروف وأناس تغيرهم الظروف . .

وفى الحالتين نحن أمام شخص مهم قادر على التغيير والتوجيه . وهو لذلك شخصية خطيرة . لأنه يملك اتخاذ القرار والتحكم فى مصائر الناس . .

وكان هناك عظماء دائما فى كل العصور . وكانت هناك أخطاء عظيمة للرجال العظماء . فالعظمة فادحة الثمن . ورغم ذلك فالناس سعداء بالرجل العظيم . لأنه صورة لأحلامهم . ولأنه يحمل عنهم أعباء الفكر والحياة والأمان . وهو لذلك له الحق فى أن يخطئ . ويكون الخطأ هو العقوبة التى يدفعها الناس ثمنا لأنهم سعداء — ومشوا وراءه — وهناك ألوف الأمثلة فى تاريخ كل الشعوب . .

فاذا لم يكن رجل عظيم فما الذى يفعله الناس بلاعظيم؟ مثلا : مات ديجول ومن قبله كنيدى وأدناور وتشرشل وهتلر وموسوليني وستالين ولينين وغيرهم من الطيبين والأشرار . فهل عاشت الشعوب ضالة لأنها فقدت الرأس المدبر المفكر . لأن السيارة فقدت عجلة القيادة . .

لاشك أن أخطاء العظيم حادث عظيم . ولكنه ليس حادثا جسيما فليس معنى

ذلك أن الشعوب يجب أن تلبس الحداد عليه مدى الحياة وانما عليها بسرعة أن تجد البديل وألا تضيع وقتها وطاقتها وتلطم خدودها وتشق جيوبها وتصبغ بالسواد مستقبلها . . وإنما عليها بسرعة أن تنظم صفوفها وأن تحرص على ماعندها من طاقة . فالحياة قطار يتساقط منه الناس . . سواء كان الناس هم الركاب أو الكمسارية أو السائقين . . ولكن القطار يمضى ويتوقف ويستأنف السير . . ولم يحدث أن ماتت شعوب بسبب موت عظمائها . . ولم يحدث أن عقمت الأمهات فلم يلدن من هو أحسن أو أفضل أو أقرب الى ذلك . . أو هو نفس الطراز ولكن بهدف أفضل . . أن الشعوب يجب أن تحرص على رجالها المخلصين . وفى حرصها عليهم ، حرصها على أعز مالديها . . على طاقتها على مسيرتها حرصها على الرأس أن يبقى عاليا ، هادئ الفكرة ، صافى النظرة ، حتى تصل إلى بر الأمان .

اننا نقبل هذه الأيام على أشياء جديدة . . إن بلادنا من حقها أن تنعم بالرخاء كشعوب أخرى كثيرة ، ان شعبنا يجب أن ينعم بالسلام كشعوب أرهقتها الحروب والنكسات . . فليس من أهداف مصر أن تفوز فى « أوليمبياد » الخراب والدمار والمرض والجهل.والعالم من حولها يتعلم ويأكل ويشرب ويحلم بعالم أفضل !

الحرب والتسلية

مالذى تشعر به وأنت تتفرج على فيلم عن الحرب العالمية الثانية أو الأولى أو حروب التحرير ؟

أنت أمام قصة مدروسة محبوكة مركزة . أو بعبارة أخرى : كل شيء فيها مكثف . فوقت الفيلم قصير والأحداث كثيرة . والمتفرج مشدود . وهذه « الشدة » النفسية يجب أن تنفرج فى النهاية . فاذا انفرجت كان هذا هو الثمن الذى يتقاضاه

كل الذين اشتركوا فى التصوير والتمثيل والاعداد والاخراج والانتاج !

ولكن الشاشة التى ترى عليها أفلام الحرب ، ترى عليها أيضا أفلام رعاة البقر والعصابات . وكلها مصنوعة بدقة وبراعة . وكلها تمثيل فى تمثيل . فلا الذى أصيب قد مات حقا ، ولا الذى مات لن يظهر فى فيلم آخر ، أو ينهض بعد أن تتحول عنه الكاميرا فأين – إذن – الحقيقة وأين التمثيل ؟ أين التاريخ وأين النكتة ؟

من المألوف جدا أن تتفرج على الأفلام وأنت تأكل وتشرب ، وأن يجلس الى جوارك أطفال صغار . دون خوف . لاهم خائفون ، ، ولاأنت خائف عليهم من الخوف ، فأنتم جميعا تتفرجون على حدوتة مثيرة . وتنتهى الحدوتة مع الأكل والشرب وظهور إعلانات عن المأكولات والمشروبات والأغانى . . وكلها مثل أمواج البحر ، بعضها يمسح البعض الآخر . . ولانهاية للأمواج ، ولانهاية للأفلام والاعلانات والأغنيات يوما بعد يوم !

فإذا كان الغرض من هذه الأفلام هو « تبشيع » الحرب – إذا صحت هذه الكلمة – فإن أحدا لاينظر إليها كذلك . وإذا كان الغرض هو هز مشاعر الناس حتى لاتصبح حياتهم مملة ، فان الهز المستمر ، مثل الصراخ المستمر ، يسد الأذن ، ومثل تناول الشطة يجعل اللسان يفقد الاحساس بها وبأى طعم آخر . وكذلك هذه الأفلام لاتجعل الناس يكرهون الحرب والدم والعنف ، وإنما يطلبون المزيد منها . . يطلبون الجديد من الأفلام المسلية المثيرة المشهية : أى التى تفتح الشهية إلى الأكل والشرب والنوم بعد ذلك انتظارا لأفلام أخرى !

على الصبر دلونى . .

منذ سنوات جاءنى رجل من أسرة سليمان . وهى أسرة عاشت فى ألمانيا أيام هتلر . وكان لهم سيرك ودور للسينما . ولاتزال السينما موجودة فى ألمانيا الشرقية . أما عميد الأسرة فهو موجود فى برلين الغربية وقد زرته فى بيته . . وأفراد هذه الأسرة المصرية قصار القامة ، سريعو النطق . ولذلك فبعض الحروف تتساقط ولايفهمهم أحد إلا بصعوبة . . صحيح أن اللغة العربية قد التوت وأصبحت ألمانية المقاطع ولكنها عربية . .

هذا الرجل جاءنى ممزق الملابس وممزق النفس أيضا . ويبدو أنه قد أنهى حسابه مع الدنيا كلها ومع الناس . فهو غير قادر على أن يتفاهم مع أحد . وابتعد عن الناس . وأبعدوه عندما كانوا ينادونه : عبد العزيز الألمانى ! وأحس أنه غريب عنهم . وانطوى على نفسه . وعلى صناعة الجلود التى يتقنها والتى أضاع فيها الكثير من المال . فهو رجل صاحب فكرة اصلاحية . فقد قام بعدة تجارب على تحسين صناعة الجلد فى مصر . وهو يقول : إن الجلد المصرى محتاج إلى طبخ جيد . وأنه هو شخصيا قد جرب أنواعا من الطبخ ويريد أن يساعده أحد على إنتاج وجبات من الجلد المطبوخ لتحسين الأحذية والشنط المصرية !

وكان حديث الرجل دفاعا طويلا عن نفسه . . فأنا لم أقل إنه مجنون ولكن الناس قالوا . وهو يؤكد أنه ليس كذلك . ولم أقل إنه جشع يريد المال . ولكنهم وصفوه بذلك . ولم أقل إنه شاذ ، ولكن الناس قد وصموه بذلك . ولم أفلح فى

أن أمنعه من الدفاع عن نفسه . فأنا لاأعرف عنه أى شىء. يكفى جدا أنه انسان طيب . وأنه رغم كل شىء يريد أن يصنع من أجل مصر أحذية أمتن . وانه لم يكتف بالهلوسة ، وإنما قدم تجارب وصفها وكتبها ويريد أن يعرضها على وزير الصناعة ومطلوب منى أن أساعده فى ذلك !

وأيامها أرسلت خطابا إلى وزير الصناعة . وتحدثت إليه . وأرسل الوزير فى طلبه وذهب الرجل . ولكن أحدا لم يسمح له بالدخول . فقد ذهب إلى وزارة الصناعة . واتجه إلى باب الوزير مباشرة . فمنعوه . وحاول أن يقول لهم إنه على موعد . ونظر الناس إلى عينيه الحمراوين وإلى ملابسه الممزقة . وأبعدوه .

وكان يتصور أن الناس كلهم يعرفون أن الوزير قد بعث فى طلبه . وأنه صاحب اختراع يستحق الاحترام . . ولكنه عصبى المزاج فخرج من وزارة الصناعة ، واتجه مباشرة إلى الورشة الصغيرة التى يعمل بها بعد أن ألقى خطبة فى الناس ، ولم يعرف الناس أن الذى سمعوه هو حكم الاعدام وأنه قد اخبرهم بالأسباب التى دعته لأن يتعثر . ومات الرجل . . وكنت قد نسيت ذلك إلى أن جاءنى واحد عامل احذية يعيد مشروع عبد العزيز سليمان وتطوير صناعة الجلود فى مصر. نفس المشروع القديم . وسألت الرجل : وأنت أيضا عندك صبر على موظفى وزارة الصناعة ؟

– عندى .

– تستطيع أن تصبر كم يوما ؟

– هيه الحكاية فيها أيام؟

– وأنت أيضا ليس عندك صبر

– يا بيه الواحد طلع من هدومه من جلده . .

– كفى . . كفى . . سوف أطلب لك الوزير وأنت قاعد !

– . . . .

وسام فى الفضاء

أعرف بالضبط ما الذى يجرى على رواد الفضاء قبل أن يقوموا برحلة الانتحار حول الأرض أو حول القمر – أو على سطحه . وهى رحلة انتحارية لأنه لا يوجد أى ضمان لعودتهم – هكذا أكد لى د . فاروق الباز . والذى يجرى للرواد وعليهم هو شىء لا يقوى أى إنسان على احتماله : إنهم يطيرون إلى ارتفاعات عالية وبسرعات هائلة ثم تهبط بهم الطائرات فجأة . ويلقون بهم فى الماء البارد ، ثم الماء الساخن . . ثم يطلبون إليهم عمل عدد لا يمكن احصاؤه من التجارب . . يجرونها ويسجلونها ويكتبونها ويحفظونها . . ويستغرق هذا التدريس الوف الساعات .

وحياتهم قاسية متقشفة .وأهم من ذلك كله أنهم لا يلقون أى حافز مادى . . على عكس ما يتصور الناس . فهذه التجارب والتدريبات العنيفة التى تصاحب المواد الكيماوية المعقدة التى يتناولونها . تجعلهم آخر الأمر حيوانات انسانية . . أو آلات ميكانيكية . ليست لها أية إرادة فى ما تفعله . وإنما هى تطيع فقط . لأن العقل لا يمكن أن يقبل على مغامرة غير مضمونة تمامًا إلا إذا كان مختلا أو إلا إذا كان مسلوبا . وهذا هو بالضبط حال رواد الفضاء . .

وأعجب من ذلك موقف الدولة الأمريكية منهم : فهم إذا سافروا إلى الفضاء الخارجى صرفت لهم الحكومة بدل سفر عاديا جدا . . وهذا البدل مخصوم منه « المبيت » لأنهم ينامون فى سفينة تملكها الدولة . . ومخصوم منه الطعام لأنهم يأكلون على حساب الدولة هكذا قال لى د . فاروق الباز .

ولابد أن نتساءل : إذن ما هى الفائدة المادية التى يجنيها هؤلاء المغامرون المجانين أو الانتحاريون .

لا فائدة مادية . وإنما مركز أدبى فقط . فالدولة ترى أنه شرف عظيم جدا قد أعطته لرائد الفضاء . هى التى اختارته ودربته واطلقته إلى السماء . . هنا تنتهى مهمة الدولة وأقصى ما عندها من تكريم لأحد المواطنين . وبعد ذلك تبدأ مهمة هذا المواطن الأمريكى .

وعليه هو وحده أن يقوم « بتسويق » هذا الشرف الرفيع . . ففى استطاعته أن يلقى محاضرات فى الجامعات والمعاهد ، أن يؤلف كتابا أو يشتغل فى احدى الشركات . . أو تختاره احدى الشركات رمزا لها أو تاجا على رأسها والشركة تكسب من ورائه ، وهو من وراء الشركة !

أما المقلب الذى سوف يشربه رواد الفضاء فى رحلتهم إلى السعودية وقطر فهو أن كل/الهدايا التى سوف تعطى لهم – وهى عادة ساعات ذهبية ، يجب أن يردوها للدولة . لأن القانون الأمريكى يحرم على كل موظف أن يتسلم هدية ثمنها أكثر من ٥٠ دولارا . ولذلك سيصبح رواد الفضاء « شيالين » لهذه الهدايا التى سوف يسلمونها لوزارة الحربية التى تضعها فى المخازن مع بقية هدايا مواطنيها . وبعد ذلك تبيعها فى مزاد فى نهاية العام !

هل الدولة قاسية على جنودها ، أو أن جنودها سعداء بهذه التضحية من أجل الانسانية . . أى بهذه القسوة عليهم وحدهم دون بقية الملايين من أصحاب الملايين فى أمريكا :

النكتة الدامية

كما هى العادة عند المحامين فإنهم يبحثون عن أية طريقة لتبرئة المتهم وهم يعلمون أنه ليس بريئا . ولكنها براعة المحامى اللعب بعواطف القضاة . ومن بين الحيل القديمة أن يهتدى المحامى إلى طريقة تقنع المحكمة بأن موكله مريض ، وأن مرضه عقلى أو عصبى . وأن هذا المرض هو الذى دفعه إلى ارتكاب الجريمة ، أى انه ارتكبها دون أن يكون فى وعيه فالقاتل أو الجانى واحد آخر . وهذا الواحد الآخر « يسكن » جسم الجانى ويدفعه إلى اقتناء المسدس والضغط عليه وإصابة الهدف . ويكون الهدف عادة شخصا بريئا ، ومن الممكن أن يهدى المحامى إلى العكس : أى إلى أن القتيل يستاهل أن يلقى هذا المصير الذى يجب ألا يحزن عليه أحد ! !

ولذلك نجح محامون كثيرون فى ادخال موكليهم إلى مستشفى الأمراض العقلية بدلا من السجون أو المشنقة ، فإذا حكمت المحكمة معتمدة على الطبيب النفسى بأن القاتل مريض أو مجنون ، كان المحامى قد حقق نجاحا عظيما ، وهذا النجاح يغريه بأن يكرر هذه الحيلة عشرات المرات . .

ومن مهازل العصر الحديث اغتيال الرئيس الأمريكى كنيدى.فالمحاكمات انتهت الى أن القاتل ليس هو القاتل . . وإلى أن قاتل القاتل ليس هو أيضًا القاتل .. ولم يبق أمام القضاة إلا أن يعلنوا أن كنيدى قد انتحر . . وعلى ذلك يجب إخراج كنيدى ومحاكمته من جديد بتهمة اغتيال رئيس الولايات المتحدة !

وسوف تتكرر هذه النكتة الدامية مرة أخرى مع محاكمة باتريشيا ابنة المليونير هيرست . انها فتاة مدللة . ويقال أنها فى طفولتها لم تسمع كلمة : لا . . فكل ما تشير إليه حاضر بين يديها . . هذه الفتاة قد انضمت إلى إحدى العصابات . واختفت . أو أخفوها . ثم اشتركت مع العصابة فى الهجوم على أحد البنوك .

ولكن لماذا تسرق ابنة المليونير؟ لماذا لم تسرق من ثروة أبيها ؟

هذه هى الفلسفة التى دفعتها إلى الجريمة . فهى ليست مجرمة عادية وإنما هى مجرمة مثقفة . مجرمة صاحبة مبدأ ، فهى لا تريد أموال أبيها . والدليل على ذلك أنها لم تحاول الاعتداء عليه أو على ممتلكاته . وإنما هى تريد أن تؤكد لوالدها أنه إذا لم يتصدق بأمواله . بارادته فسوف يجد نفسه مضطرا إلى ذلك بالقوة . وأن ابنته هذه تعتنق مذهب : يجب أن نكره الأغنياء على مساعدة الفقراء بالنار .

إذن الفتاة قد اعترفت بكل شىء ولكن المحامين لهم رأى آخر . وهم يرون أن الفتاة التى لها تاريخ لطيف رقيق وديع تتحدث لغة عربية لغة أدخلوها فى رأسها وفى دمها بالإرهاب . بل أنهم لاحظوا انها لم تعانق أمها بحرارة . وأنها قد قبلتها على جانب واحد من وجهها . وأنها عندما صافحت والدها كانت السيجارة ترتجف بين شفتيها . ويستنتج المحامون وأطباء النفس أن هذا دليل قاطع على أن البنت مجنونة . وعلى ذلك فلابد أن تبرئها المحكمة من كل التهم التى ألصقت بها . .

وهناك رأى ظهر اخيرًا جدا أن الفتاة عندها ازدواج فى شخصيتها وعلى ذلك فاحدى شخصيتيها هى المعتدية والأخرى مجنى عليها وتستحق الرحمة وعظيم الاحترام والحنان .

إنها إذن – اليوم وغدا – ليست عدالة القاضى . وإنما براعة المحامى فى العزف على القانون هى التى سوف تجعل « قاتل » الشوارلى بريئا نظيفًا كالشعرة عندما تخرج من العجين !

الشعر والحقيقة الكبرى

علمنى أبى كيف أتذوق الشعر وأحفظ ألوف الأبيات فى سن صغير وحفظت القرآن الكريم وأنا لا أفهم منه إلا القليل ، وأكثر المعلقات حفظتها قبل دخولى المدرسة الابتدائية . . وكان أبى يرحمه الله شاعرا رقيقاً وفى يوم ضبطنى أروى شعرا لا يعرفه هو وسألنى : من الشاعر ؟ قلت : محمود حسن اسماعيل وهذا ديوانه : أغانى الكوخ .

ولم يكن أبى قد قرأ عن الشاعر محمود حسن اسماعيل . وكانت فرحتى باكتشاف محمود حسن اسماعيل دون مساعدة من والدى هى التى جعلتنى أحفظ الديوان كاملا . وقد فوجئ الشاعر محمود حسن اسماعيل عندما وجدنى ، وهو لا يعرفنى – أروى قصائده مفتونا بها على مسمع منه ومن المرحوم كامل الشناوى . وقدمنى إلى الشاعر وكانت بداية صداقتنا الروحية .

وقد صدر للشاعر محمود حسن اسماعيل ديوانه الرقيق الشفاف (نهر الحقيقة) . فى هذا الديوان نغمة جديدة : أن الشاعر يصادق الحياة ويصدق عليها . وفيه نوبة من العذاب . فكل ما تعذب به عاد إليه . فليس هناك شىء إلا الحقيقة . . أنا وأنت والحياة . والحقيقة أيضًا !

يقول :

وجودى حقيقة .

وشدوى حقيقة .

وما اشتقت دربا على ساعديه
تموت الحقيقة .
.. أغنى السراب لتنشق منه
ضفاف من النور تجلى طريقه
تخطت من راحتيه بروفه .
وتغنى شقوقه .
وتأتى به راكعا للحقيقة !
ويقول أيضا :
وجودى حقيقة .
وذاتى حقيقة
وأنى على الأرض طير يغنى :
حقيقة .
ونور الحقيقة سر الحياة وسر الأمل
بغير الحقيقة كل المعانى : سراب
ومن دونها كل شىء : خراب
على الحب قامت أصول الحياة :
حقيقة
وبالخير يسق هواها هواه :
حقيقة !
ويقول :
حبيى : حياة
وحبى : حياة

وفى وجهه كل نور الحياة
وفيه الهوى والأمل
ويقول :
حياتى : حياة
وعمر جديد : أراه
فما فات منها : رحل
وما غاب فهو طريق الأمل
ويقول :
أرضى وما أقدسها : حياة
ترابها : حياة
وماؤها : حياة
وعيشها : حياة
نسيمها : قبل
وأفقها : أمل
ويقول عن النهر :
سكونه : حياة
ونطقه : حياة
والموج فوق صدره : صلاة

وبقية الديوان عناق طويل وصلوات وسلام وتسليم لكل ما هو جميل وجليل فى الحياة . . إن الشاعر مثل حاج طاف وتعذب ثم استقر على شىء واحد : ان الحقيقة هى الله ، وأننا حقيقة لأننا مفردات للحقيقة الكبرى !

دنيا البيانولا

من الممكن أن يكون عندنا مسرح غنائى : مادام عندنا مسرح وعندنا هذا العدد الكبير من الأصوات . فإذا أعطيت لهذه الأصوات فرص أكبر وأجمل ظهرت أمامنا وفى آذاننا أصوات مصرية تستعيد الأغنية والقصيدة والأوبريت .

وقد شاهدت مسرحية « دنيا البيانولا » وقد غنى فيها محرم فؤاد وعفاف راضى وآخرون . وقد وجد الناس تغيرًا واضحا فى صوت عفاف راضى . صوتها أجمل وأكثر امتلاء . بالضبط ما الذى حدث لصوتها أو لادائها لا أعرف . ولكن أصبح صوتها أكثر نعومة أو أصبحت له « وبرة حريرية » . ولم تعد صارخة النبرة . وإنما أفلح الملحنون أن يقوموا بتعريب الصوت وتمصيره . ثم إنها أيضا أصبحت أخف حركة . وهذا التغير السريع سوف يعطيها فرصا أكبر على المسرح وعلى الشاشة . وهذا يدل على أن عفاف راضى قد استفادت من النقد الذى وجه إليها . وأهم ما فى النقد : أنها لا تقف على قدميها ، وإنما على كتفى غيرها . وأنها يجب أن تقف على أرضها وبقدراتها . ومن هذا النقد أيضا أنها أوبرالية الأداء . وأنها إذا أرادت أن تكون مغنية فلابد أن تكون مطربة ، فيطرب لها من يستمع إليها . وأن تكون أكثر خفة ومرونة وحركة ، وقد استطاعت ذلك إلى حد كبير .

وعلى غير ما يتوقع الناس من محرم فؤاد أن يكون خفيفا لطيفًا ممثلا ، فقد كان كل ذلك . ثم إن الأغنيات التى أداها كانت أرق وأنعم . إنه لا يزعق ولا يتشنج . وربما كان ظهور محرم فؤاد على المسرح الغنائى متأخرا . ولكن ما يزال هناك وقت

أمام حيويته وإصراره واقبال الناس عليه . .

ومن المؤكد أن محرم فؤاد وعفاف راضى لن يبقيا طويلا على المسرح الغنائى ، فسوف ينتقلان بسرعة إلى السينما أو إلى الحفلات . ولكن على كل حال هذه فرصة للتدريب والمواجهة اليومية .

ولذلك أرى أن المسرح الغنائى سوف يجتذب عددا أكبر من الشبان الذين يغنون للفرق الموسيقية العربية . . ففيهم مواهب ، ولهم أشكال متميزة . ويكفى أن ننظر إلى أفراد فرقة الموسيقى العربية أو فرقة التخت الشرقى . إن المخرجين يدوخون بحثا عن الوجه الجديد الجذاب . والصوت المتفرد بمزايا خاصة . لا يقلد عبد الوهاب أو عبد الحليم .

لابد أن عددا من المخرجين أو المؤلفين يطمعون فى ظهور أوبريتات أو أوبرات مصرية . ولا أعرف إن كان هذا ممكنا ، وإذا أمكن أن يستسيغه المستمع المصرى . ولكن من المؤكد أن الأغنية القصيرة هى أهم الأشكال الغنائية عندنا فهى أسلوب المطرب ، وهى أقصى مايستطيع الملحن الآن – ولابد أن تغييرا كبيرا سوف يطرأ على هذا كله فى المستقبل القريب . .

وقد استمتعت بمسرحية « دنيا البيانولا » وضحكت كثيرا على أحد ابطالها فاروق نجيب . . ومن خلال الضحك المتقطع والحوار الطويل تجىء هذه الأغنيات السريعة الظريفة ، فى اطارات المخرج الممتاز فى أحيان كثيرة : كرم مطاوع !

فلسفة التكرار

تابعت مستمعا ندوة فى صوت العرب من إعداد نهى العلمى عن الملحن الواحد للمطرب الواحد . وهل إذا تلازم لحن وصوت سنوات طويلة ، يؤدى إلى أن يمل الناس الاثنين معا « إنها قضية » فقد تلازمت أم كلثوم والسنباطى ، وسلطان وفايزة وبليغ ووردة ومنير مراد وشادية . . كما تلازم الأخوان رحبانى وفيروز لحنا ونظما . .

بل إن محمد عبد الوهاب يلحن لنفسه ، وكذلك فريد الاطرش ومحمد فوزى . . فماذا حدث ؟ إن هناك خوفا من النقاد على أن يكرر الفنان نفسه لأنه لا يستطيع أن يجد شيئًا جديدا فى كل مرة . وهذا التكرار يؤدى إلى أن « يزهق » المستمع ، وهى غلطة سببها التلازم بين الملحن والمطرب أو المطرب الملحن أو المطرب الملحن الشاعر فى نفس الوقت !

ولكن أحدا لم يمل محمد عبد الوهاب فنحن نجد فى كل أغنية لحنا وموسيقى جديدة . ويتعلق الناس بعبد الوهاب أكثر . ومن الطبيعى أن يكرر الفنان نفسه . فالفنان المبدع طائر له لحن واحد . ومعنى واحد يدور حوله دائما لعله يراه أوضح أو أجمل أو أعمق .

فالفنان هو الإنسان الذى يكرر نفسه . . والحقيقة أنه لا يكرر نفسه ، وإنما يعدل نظرته إلى نفس المعانى أو الاداء ، وتكرار الفنان ليس إفلاسا ، وإنما هى ملامح الفنان المعروفة تراها فى كل أعماله ، تماما كما ترى شخصا واحدا فى عشرة

أماكن فى يوم واحد وفى أزياء متنوعة وفى مناسبات مختلفة إنه لا يكرر نفسه . وإنما هو شخص واحد فى أماكن كثيرة . . ثم إننا عادة نطلب من المطرب أن يعيد المقطع الذى أعجبنا . أى إننا نطلب اليه أن يكرر نفسه لتزداد استمتاعًا به . وليست الاسطوانات والاشرطة إلا حرصا متجددا على أن نسمع مرة أخرى ما أعجبنا أى أن نرى الفنان يتكرر أمامنا .

فليس التكرار هو الذى يضايقنا ، وإنما تكرار الشيء السخيف هو الذى يضايقنا . . ولو عدنا إلى أعظم المؤلفين للمسرح أو الشعراء أو الرسامين : لوجدنا لكل منهم فلسفة تدور حول معنى واحد يكرره . تماما كما يكون عندنا طعام واحد فنضعه فى الف طبق . . كل طبق من لون وشكل وحجم . . وفى مناسبات مختلفة . . إنه نفس الطعام ، ولكن الأشكال والمناسبات تتنوع .

فالناس قد ملوا حياتهم المتكررة ، ولذلك يكرهون التكرار عند الآخرين ولكن من المستحيل ألا يكون ! إن وجهك الذى تراه ولا تمله به : عينان وحاجبان واذنان وشفتان وعشرات الاسنان وأكثر من مليون شعرة !

الفن الجميل

قلبت فى كتالوج للوحات الفنان النمساوى هوندرتفاسر . اللوحات جميلة . ولكن لا أعرف بالضبط ما معنى كلمة جميلة . أو ما الذى أعجبنى فيها . . ولا أعرف كيف أنقل لك هذا المعنى دون أن أنشر بعض اللوحات . . ولكن يحدث فى حياتنا كل يوم : أن تنظر إلى السماء أو إلى النيل أو إلى الشوارع الخالية من الناس . . أو إلى الطرقات القليلة الأضواء وتقول : جميلة . . أو تنظر إلى طفل صغير يداعب قطة أو كلبًا . . أو قد نام على صدر أمه وتقول : جميل . . دون أن

تحدد بالضبط ما الذى تقصده .. ودون أن يطلب منك أحد شيئا من ذلك ..

وكذلك توالت اللوحات بين أصابعى وأنا أقول : جميلة .. رائعة .. وإن كنت لم أشاهد هذا المعرض الضخم الفخم عندما أقيم فى القاهرة ..

وعدت إلى الصفحات الأولى من كتالوج الفنان النمساوى هوندر تفاسر فوجدت مقدمة بقلم المستشار برونو كرايسكى . وهو يقول إنه ليس كاتبًا ولا ناقدًا فنيا ولكنه يضع وراءه لوحة لهذا الفنان . وقال إنه لا يعرف بالضبط معناها . ولكن فى كل مرة ينظر إليها يشعر بأنها مريحة .. أو أنها تعطيه شعورا بالأمن والأمان ثم يقول : من المؤكد أننى أشغل وظيفةهامة جدا . ومن المؤكد أن خصومى السياسيين يرون أنها هامة جدا ، وإن كانوا لا يرون أننى أنا الشخص المناسب . إن هذه اللوحة تمنحنى الهدوء والشجاعة والخيال .

أما اللوحة التى وراءه على الحائط فهى مجموعة من الدوائر الحمراء الناعمة الملمس .. فقط هذه هى اللوحة التى أعطته الشعور بالراحة . والشعور بالراحة هو أندر المشاعر فى عصرنا الحديث . فهنا أشكال وألوان وأحجام ودرجات من المشاعر العنيفة إلا الشعور بالراحة والارتياح والأمن والأمان والانطلاق بالخيال من أجل الإبداع ، لذلك كانت اللوحة المريحة فى غاية الجمال . فالجمال هو هذا الشعور بالراحة والسرور معًا .

وكان لابد أن أنظر ورائى وأنا أكتب ما الذى أجده .. لا شىء إلا الكتب من السقف إلى الأرض .. ولا شىء إلا أنها فى حالة تربص ، أى أنها تنتظر اللحظة التى تنطبق فيها على رأسى .. أى تقع فوق دماغى وليس أمامى أيضا إلا كتب من الأرض إلى السقف .. وإذا اخترت كتابًا واحدًا تناثر تراب الكتب . وهذا التراب هو المسئول عن حساسيتى المستمرة .. فأنا أهرش فى رأسى وفى أنفى وفى عينى .. والسبب هو الكتب .. أو تراب الكتب .. أما هذا الشعور الهادئ التام الجميل

المبدع الذى يتحدث عنه المستشار كرايسكى فهو واحد من آمالى الباقية . وعندما أعدت النظر إلى اللوحة التى علقها المستشار فى مكتبه لم أجدها تشع هذا الهناء الذى يتحدث عنه ، إن الفن كالجمال والمال والفضيلة مسألة نسبية !

البؤساء

فى العصور القديمة قررت إحدى الدول القضاء على مشاكل الفنانين والأدباء . فألغت الأدب والفن . وبذلك تساوى الناس أمام الجمال وتذوق الحياة : الكل حيوانات !

هذه الدولة عندما يتفرج عليها السياح الآن فى بلاد اليونان يجدون واديًا فسيحًا محاطًا بالجبال . وتمتد عيون السياح فلا يجدون أمامهم شيئًا يستحق الزيارة . وتمتد أيديهم إلى الأرض ويلقى كل واحد حجرًا على هذا الوادى الذى كان اسمه « اسبرطة » .. وتكون هذه الأحجار لعنات جامدة طائرة استقرت على وجه اسبرطة كأنها بصقات الاحتقار عبر التاريخ !

فالفنانون والأدباء لهم مشاكل . إنها مشاكل أناس أعطاهم الله أكثر مما أعطى غيرهم من الحساسية والقدرة على التعبير ويكون التعبير جديدًا . ويلتف حولهم الناس . ويعطونهم ما تحاول الدولة أن تقاسمهم فيه .. أو تخطفه منهم ، مساواة لهم بالناس ، وحقدًا من موظفى الدولة على الأبناء النابهين فى كل عصر .

ومن أكثر من أربع سنوات ضجت « جنة الله على الأرض » — أقصد السويد — لأن أحد أبنائها اللامعين قرر أن يترك بلاده التى ليس فيها جائع ولا عاطل ولا خائف ولا مظلوم .. لماذا ؟ لأن بلاده قد عاملته كأنه قد سرق أموال الشعب . فجمع منها الكثير . ولابد أن تستولى الدولة على نصف الذى كسبه . ولم

يكن أسلوب رجال الضرائب مهذبًا ولا محترمًا . فقرر أن يترك للسويد سعادتها بموظفيها . وسافر إلى أمريكا .

ووجه رئيس وزراء السويد نداء إلى المخرج الكبير برجمان أن يعود إلى بلاده وأنه يعتذر له باسم الدولة عن كل ما حدث . وأن الدولة سوف ترفع عنه كل هذه الأعباء . وقال رئيس الوزراء : إننى أخشى على بلادنا أن يهجرها الفنانون . أخشى على الجنة ألا تكون كذلك !

ومن المؤكد أن لبنان – رحمها الله من أبنائها – كانت جنة الشرق الأوسط .. لأنها تعيش على سخافة العقليات فى مصر. فكل القوانين المعقدة التى أصدرتها مصر حلتها لبنان .. ويكفى أن نشير إلى ما أصاب الكتاب المصرى وحده . فقيود النشر والاستيراد والتصدير وإرهاب المؤلفين بالضرائب ، قد أنعش الطباعة والكتابة والتوزيع فى بيروت . وإذا لم تتدارك مصر هذه الأخطاء الفادحة ، فإن بيروت سوف تنتعش أسرع مما نتصور. ويتحول المؤلفون المصريون إلى مهاجرين إلى بيروت وغيرها هربًا من الضرائب .

ملحوظة هامة جدا : إن كل الضرائب التى تتقاضاها الدولة من جميع المؤلفين تساوى بالضبط ماتقاضته مطربة مشهورة فى ليلة فى كباريه فى شارع الهرم . عجبى !

فنان الشعب . . .

هناك أكثر من سيد درويش ..

سيد درويش الفنان الشعبى الفقير الذى عاش فى الإسكندرية . عاملا مسكينًا . طالبًا تعيسا . زوجًا وأبًا محتاجًا . وهو فى نفس الوقت موهبة مستقلة . ولكن هذه الموهبة لا تجد ما تتغنى به . وإذا وجدت فإن الفرصة ضيقة . وإذا

سنحت الفرصة فإن الرزق محدود .. وعاش سيد درويش فى ضيق . حتى عمره كان مثل رزقه محدوداً قصيرًا . فعاش سيد درويش ومات مقصوف العمر ..

وألحان سيد درويش جميلة بسيطة . وكلماته لم ترق إلى هذا المستوى ، بل كانت ركيكة فى كثير من الأحيان . وكان هو يجد لذة أو يجد نفسه مضطرا إلى تأليف كلماته .

ولكن سيد درويش نموذج للمصرى الموهوب الذى شق طريقه فى الفن وفى الحياة بصعوبة شديدة .. فأثار فينا الإعجاب والإشفاق .. وجاء رحيله المبكر باعثًا على الأسى ..

وهناك سيد درويش آخر ..

وهو الفنان الذى كتبنا قصته وصورنا حياته الفنية على أنه فنان الشعب الأصيل . مع أنه لا يستطيع إلا أن يكون شعبيا . فلم يكن غنيًّا ألقَى بالمال من أجل أن يشارك الفقراء ، ولا هو ابن ذوات ، ترك القصور لينام على الأرض – إيمانا منه بمذهب أو فلسفة . ولما أدركته ثورة ١٩١٩ أضافت إلى ضيقه وتعاسته معنى جديدا . وأعطته نوعا من الثورية . ولما جاءت الثورة الشعبية الثانية سنة ١٩٥٢ أطالت عمر سيد درويش . وجعلته فنان الشعب الأول ، والذى تغنى بالناس الصغار : الباعة والفلاحين والموظفين . وخلقت له الثورة طموحًا وتطلعات . وأصبح سيد درويش من ثمرات سنة ١٩١٩ ومن طلائع ثورة سنة ١٩٥٢ .

وهناك سيد درويش ثالث .. فالذين يعرفون الموسيقى والغناء .. ويقارنون بين المؤلفين والملحنين ، اليوم ، وأمس ، يرون أن سيد درويش فنان محظوظ بعد موته . وأن الفن والتاريخ الأدبى والفنى قد أعطاه أكثر مما يستحق وأن سيد درويش قد كبر فى خيالنا لدرجة أن فنانين آخرين قد أصبحوا أقزامًا . وانتقلوا إلى ظل سيد درويش . مثلا : سلامة حجازى أكبر وأعرض وأعمق وأعظم من سيد

درويش . وأنه هو الذى يستحق الاحترام وعظيم اللوحات والتماثيل والألقاب والنياشين ..

وهناك سيد درويش الأب أو الزوج أو العاشق .. أو العامل .. أو سيد درويش الذى يعرفه أولاده وأقاربه . إنه إنسان آخر ، لا هو فنان الشعب ، ولا هو عبقرى العصور .. إنه رجل مضطرب مريض !

ومن المؤكد أن سيد درويش هو كل هؤلاء بدرجات متفاوتة .. فهو فنان موهوب .. عاش معذبًا ، واليوم يحاسب على ما فعل وعلى الذى لم يفعله .. أما الإنسان نفسه فقد انتهى ، أما الفنان فعمره طويل وحسابه أطول !

•

قالوا ..

نوعان من الجمال : واحد ينطقك ، وواحد يفقدك النطق !

حمار تركبه خير من حصان يرفسك !

مرحبا أيها المرض – إذا كنت تجىء وحدك !

الخطأ الصغير . لا يستمر

ونحن نتمشى فى شوارع برلين الجميلة سألت صديقًا قديمًا : وما هى العادة الأخرى السيئة التى يرتكبها الشبان هذه الأيام ؟

ولم يكن فى حاجة إلى أن يفكر فقد كانت الإجابة جاهزة . وانتظر منى أو من أى أحد آخر أن يسأله .. وإذا به يقول : أمامك .. ماذا ترى ؟

والتفت لأرى شبابًا فى غاية الهدوء والرقة . الفتيان مسالمون كل واحد فى حاله . قد أطال شعره ونزع بعض ملابسه . فالدنيا حر . ولكنه لم ينزع ملابسه

كلها .. وإنما احتفظ بالكثير يستره . ويجعله محترماً . والفتيات جميلات رشيقات باديات الضعف . وربما كان الضعف سببه الحرص على الجوع . والمثل يقول : احرص على الجوع يوهب لك الجمال .

وسألني : هل لاحظت ؟

فقلت : نعم إنه لشيء جميل .

وصرخ يستنكر ما أقول أو ما سوف أقول . وقبل أن يلقى بنفسه تحت إحدى السيارات ، على سبيل الضيق بالأمر الواقع – الذى هو أنا – سألته : إن كان لا يرى هذا الشباب والجمال فى الناس .. والنظافة والنظام فى الشوارع والمبانى .

ولكنه لم يكن يرى شيئا من ذلك .. إن الذى وقعت عليه عيناه هو أن الشبان لا يحترمون تعاليم المرور . والتفت أرى الشبان عند أماكن المرور إنهم يقفون ثم يتحركون مع علامات المرور . ولكن يبدو أن واحدًا أو ثلاثة لا يفعلون ذلك . هذا صحيح . ولكن إذا أخطأ ثلاثة فإن ألوفًا حريصون على الصواب ..

ولكن شكواه كيف يفعل ذلك ثلاثة . إن هذا لا يجب . فالذى لا يحترم مصابيح المرور لا يحترم علامات المرور البيضاء ولا علامات الملاعب .. ولا القواعد ، والذى يخطئ علنًا وعلى مرآى من الناس ، ما الذى يفعله إذا لم يكن هناك ناس .. إن الذى لا يخجله الناس سوف يفعل ما يخجل الإنسانية كلها ..

أما أنا فقد حسدت بلاده على الملايين التى تحترم النظام . ولكنه حزين على بلاده لأن هناك مئات لا يحترمون النظام . ولكنه لا يستهين بهذه المئات ، لأن المائة هى أبو الألف والألف هو أبو المليون .. وكل شىء يبدأ صغيرا ثم يستشرى بين الناس . فالأخطاء الصغيرة إذا تركناها كبرت وتحولت من أخطاء إلى خطايا – والله معك حق ! .

النصف الحلو

من الحوادث الغريبة أن مهاجراً مصريًّا أعلن فى مجلة آخر ساعة عن رغبته فى الزواج . وليس عنده وقت ليجد بنت الحلال . فتقدمت له مئات الفتيات . وكان من نصيبه أن يتزوج فتاة جميلة جامعية . وجاء بعد ذلك رجل استرالى يوغوسلافى مسلم اسمه عمر فرحات (٦٠ سنة) يريد أيضا أن يتزوج فتاة أو سيدة مسلمة فى الأربعين . وتقدمت للزواج منه سيدات كثيرات . وجاءت اللغة حائلا بين إتمام هذا الزواج .

وهذان الحادثان فتحا بابًا واسعًا طويلا إلى عدد كبير من الرجال والشباب يريدون الزواج فعلا . ولكن ليس عندهم وقت . أو ليس عندهم فرص مناسبة لاختيار بنت الحلال . مثلا : الضباط فى الجبهة يريدون الزواج . هذا طبيعى . ولكن ليس عندهم وقت . فإجازاتهم قصيرة . والوقت لا يكفى اختيار فتاة .. ولذلك تنتهى الإجازة وتجىء إجازة أخرى ولا تزال الرغبة قائمة .

تلقيت رسالة من أحد الضباط يقول فيها : « إننى كالمهاجرين فى استراليا أريد بنت الحلال . ولا أعرف كيف أهتدى إليها . إن وقتى يضيع فى المواصلات وفى النوم على سرير لين وفى السينما . ولا أكاد أخرج من السينما حتى أتجه إلى الصحراء .. إلى الجبهة .. وتمضى السنون ولا أجد بنت الحلال .

وتلقيت خطابات من أطباء ومهندسين ومدرسين .. وخطابات أخرى من فتيات جامعيات يردن الزواج أيضًا .. وهنّ جادات فى ذلك .

فما معنى هذا ؟

معناه أن الناس كثيرون فى كل مكان . ولكنهم متباعدون . كل واحد مشغول بما فى رأسه أو فى قلبه . وهذا الزحام لا يعنى أن هناك صلات بين الناس . وإنما هم متجاورون .

فقط فى المواصلات والشوارع والمطاعم والملاعب والسينمات والمسارح .. ولكن أحدًا لا يحدث أحدًا ولا يدرى به . إن الحياة الحديثة قد جعلت الناس ملايين الأفراد .. ملايين ولكنهم أفراد . ولذلك كان من الطبيعى ألا يجد الراغب فى الزواج عروسا وألا تجد الراغبة فى الزواج عريسا .

ولابد أن يساعدهم أحد على إتمام نصف الدين . وفى كثير من الدول الأوربية والأمريكية تنشر الصحف إعلانات الزواج أو « نصفك الحلو » وتعقد لقاءات بين الجادين فى الزواج .. وهم جادون ولكن الحياة تبعثرهم وتطردهم بعيدا عن أهدافهم الكريمة !

المهم ألا نتوقف

لا يمضى وقت طويل حتى نقول : إن هذه مرحلة .. وبعد فترة أخرى نقول : هذه مرحلة جديدة ..

ونصف كل حالاتنا بأنها انتقالية .

ولابد أن يكون المعنى فى أذهاننا : إننا نريد أن نشعر جميعًا بأننا نتحرك . بأننا ننتقل من حالة إلى حالة أننا انتقلنا فعلا . وبأنه من الضرورى أن ننتقل .

ونحن نشبه الذى ينظر من القطار أو من السيارة إلى أرقام الكيلومترات لأنه يريد أن يشعر بأنه اقترب من هدفه .. أى أننا انتقلنا من الكيلو كذا إلى الكيلو

كذا .. أى أننا ننطلق بسرعة أو ببطء نحو الهدف . وهذا معناه أننا ندعو أنفسنا إلى الانطلاق .

وليس أسهل من الانتقال من مكان إلى مكان . وليس أصعب من الانتقال من حالة إلى حالة أفضل . فالانتقال فى المكان تستطيعه سيارة ، بل تستطيعه أقدامنا .. ولكن الانتقال من الفوضى إلى النظام ، من الكسل إلى النشاط ، من الإسراف إلى الادخار من الطفولة إلى الرجولة . من الانتظار إلى الاستعداد . من الاستعداد إلى التقدم — كل ذلك يحتاج إلى جهود كثيرة متضافرة . إلى جهود واعية طويلة صابرة . فحماسنا وغضبنا وحده لا يكفى . وأيدينا وحدها لا تصد وسلاحنا دون أيدينا ودون صعود معنوياتنا لا ترد ولا تصد . إن هناك عناصر كثيرة ضرورية لكى ننتقل من مرحلة إلى مرحلة .. والمهم أن ننتقل وأن نحرص على ذلك . أما إذا كنا نقف فى أماكننا ونتخيل علامات الطريق ونقول : مرحلة .. ومرحلة .. ومرحلة .. فنحن إذن لسنا واعين .. لكننا فى حاجة إلى أن نتعاون جميعًا من أجل وضوح الطريق أمامنا .. لا لنرى الطريق فقط بيننا وبين عدونا ، ولكن بيننا وبين أنفسنا . فنحن يجب أن نحارب متحدين ، لا متفرقين . واعين لا نائمين وكلنا جنود . ولذلك فمن الضرورى أن نعرف وأن نتدرب على كل مستوى ! .

عالم أطفال .. أطفال

فى يوم من الأيام كنت مبهورا بالطريقة التى خلق بها الإنسان . وكنت أتمنى لو كانت لى حياة أبينا آدم عليه السلام . فالله قد خلقه من (أديم) الأرض أو من ترابها . فهو إذن بلا أب ولا أم . يتيم . أو اليتيم الوحيد . وأدركت لماذا كان أبونا آدم رقيقًا مسالمًا أمام ابنته وزوجته حواء .. فهو أبوها وهو زوجها . وقد جرب

الحياة بغيرها .. جرب الوحدة الرهيبة ، حتى لوكانت فى الجنة . ثم إنه كان مضطرا إلى الحياة معها . فلا اختيار أمامه .. إما هى أو عذاب الوحدة .

ولكن الوحدة الممكنة التى تصورتها وكنت سعيدا بها هى أن يكون الإنسان يتيمًا .. يولد هكذا .. لا أب ولا أم .. ولكن عرفت بعد ذلك أن التعاسة هى مصير اليتامى ، والقسوة هى عقوبة كل من يرتبط بإنسان يتيم — وهذه قصة طويلة !

وتصورت يوما ما أن الطفل اللقيط أحسن الناس حالا . بشرط أن يكون هذا اللقيط فى بلد أوربى . فهناك لا يشعر بأنه لقيط . ولا يكتبون فى شهادة ميلاده أو جواز سفره أن أمه قد ألقت به فى مكان ما ، ثم جاء بعض الناس والتقطوه — كما حدث للنبى موسى عليه السلام . وليس من الضرورى أن تسير أمه وراءه حتى تتسلل إلى قصر فرعون لترضعه — يكفى جدا أن يشعر الابن أنه بلا أب يعرفه ولا أم .

وتابعت باهتمام شديد ومنذ سنوات تجربة المستعمرات الإسرائيلية — الكيبوتز — حيث يبعدون الطفل عن والديه تماما . فيعرف أن أمه إسرائيل وأن أباه صهيون . وأن أعداءه العرب ، وأنه سيد الكائنات كلها — وهى درجات مركزة من الحقد والتعالى على كل الناس . وفى نفس الوقت لا تولد فى الطفل عقدة (أوديب) أى الارتباط بالأب ، ولا عقدة (الكترا) أى الالتصاق بالأم . وبذلك يكون الأطفال بلا مشاكل عائلية ولا عقد جنسية !

وكتب علماء اليهود عن هذه التجربة كثيرًا جدا . وقالوا : إنها فرصة لتصحيح الأخطاء الإنسانية كلها . انظروا الأطفال !

وذهب الناس يتفرجون على أطفال فى غاية القسوة والصلابة والجفاف — أى بلا إنسانية — فلا حنين للأب ولا امتنان للأم . ولا رغبة فى أن تكون لهم أسرة

خاصة ولا أولاد .

ويبدو أن إسرائيل بدأت تعدل عن هذه التجربة . فالأطفال فى غاية الحزن والجفاف والجمود والقسوة والأمهات أكثر حزنًا . أما الآباء فالأمر لا يعنيهم . فدور الرجل فى أن يكون له طفل دور تافه .. ولكن التى حملت وولدت وأرضعت ثم حرمت من الأمومة ، هى التى تدفع الثمن غاليًا من العذاب !

والخلاصة : ليس أحسن ولا أسوأ مما نحن فيه : أن نكون أبناء نبكى على أمهاتنا وآبائنا ونلعن البنوة والأبوة معًا !

إنها التجربة . !

لا وجه للشبه بينى وبين أول رائد للفضاء : جاجارين . ولكن هناك مناسبة تجعلنى مضطرا إلى المقارنة . لقد قرأت فى كتاب صدر أخيرًا بقلم رائد الفضاء عن تجاربه فى الطيران وفى القفز بالمظلة .. وهو يؤكد دائمًا أنه كأى إنسان يخاف ويضطرب ويتوهم . ولا يدعى أن قوته خارقة للطبيعة . وإنما هو إنسان له تجارب وعنده معلومات . ويريد أن يعرف أكثر . يقول إنه عندما طلبوا إليه أن يسقط بالمظلة من الطائرة شعر بالخوف الشديد . ولم يتصور أنه سوف يسقط كقطعة من الحجر إلى الأرض سالما . وسمع من يقول له : استعد .

ووقف فى حالة استعداد .. ثم سمع من يقول له : الآن اقفز ..

ولم يشعر بأى شىء . لم يشعر بأنه قفز . ولا بأنه سمع الأمر أو أطاعه . ولكنه فقط وجد نفسه فى الهواء وبعد لحظات لا يعرف كم طولها وجد المظلة قد انفتحت فوق رأسه . وشعر بشىء من النشوة والأمان . إنه الآن فى طريق السلامة . ولكن فى نفس الوقت أحس باقتراب الأرض . مع أن المسافة بينه وبين الأرض كانت

ماتزال كبيرة .. ولكن فى داخله رغبة فى الاستعجال لكى يصل إلى الأرض ويستقر عليها .. وسمع الجنود الآخرين حوله وفوقه يضحكون ويتصايحون .. وكاد ينشغل عن النظر إلى الأرض . ثم نظر إلى الأرض وكانت مغطاة بالجليد .. ثم وضع ساقيه بالشكل المناسب وهبط فى الجليد !

وانتهى كل شىء فى ثوانى معدودات .. ولم ينم الليلة السابقة على القفز ..

ويقول جاجارين وزميله الطبيب الذى شاركه فى تأليف الكتاب : إن الخوف طبيعى . والشجاعة طبيعية . والتغلب على الخوف أيضًا طبيعى . ولا يوجد أناس لهم قوى خارقة . ولكن كل الناس فى داخلهم قوى خارقة . تنقصها الفرصة لكى تظهر . والتدريب لكى تستمر . فإذا نجح مرة ، أصبح ممكنا عشرات ومئات المرات !

أقول هذا وأكرره ولا أصدقه . أما المناسبة فهى الصيف واقتراب الناس من الماء ، ماء الحمامات أو البحر . والرغبة فى السباحة .. أى مجرد الطفو على الماء . وقد حاولت ذلك عشرات المرات والنتيجة أننى كالذى يقفز من طائرة ولا تنفتح المظلة . وإذا كان جاجارين يحاول أن يقول إن كل الناس مثله أو كل الناس متشابهون ، فإننى أقول : إلا أنا !

ومن لا يصدقنى فليأت ليتفرج على التفاعل الكيماوى الذى أقوم به فيتحول الإنسان إلى حجر بمجرد ملامسة جسمه للماء !

لغة الرحمة ..

ركبت مع سائق غاضب يشكو من أن قلوب الناس خلت من الرحمة ، هو الذى قال إنه يعرف سيدة أجنبية فى منطقة حى معروف . هذه السيدة تشترى اللحم والعظم وتسلقها جميعا وتضعها للكلاب والقطط الضالة فى الشارع . والناس حولها يقولون : شوفوا الست المجنونة !

وهو شاهد بعينيه أجنبيا ينزل من سيارته ويوقف أحد العربجية ويسأله : لماذا تضرب هذا الحصان ؟ فأجاب العربجى : لأنه لا يريد أن يمشى ؟ ويعود الأجنبى يسأله : وهل سألته لماذا لايريد أن يمشى ؟ ويقول العربجى : وهل أعرف لغة الحيوان ؟ ويقول الأجنبى : إذا كنت لا تعرف لغته فكيف قررت أنه لا يريد .. إلخ .

والرحمة والرأفة والعدل والإنسانية كلها تبدأ من العطف على الحيوان المسكين ، والذى لا يعرف العطف على هذه الحيوانات لا يمكن أن يكون رحيما أوعطوفًا على الإنسان . ويقول السائق الغاضب إنه يلاحظ أن أولاده الصغار يمسكون القطة من ذيلها والدجاجة من رقبتها ويمضون اليوم كله يصيدون العصافير بالنبلة . فالأطفال – هكذا – نربيهم على القسوة ولا أب يعترض ولا أم تستنكر . وبعد ذلك يبكى الأب إما على أن أولاده يقسون عليه ولا يقدرون العذاب والعناء والهوان الذى يلاقيه الأب من أجل لقمة العيش .. وبعد ذلك تندم الأم على أنها حملت وولدت وأرضعت واحتضنت ورعت .. والأم لا تلوم إلا نفسها فقد كان

من الواجب عليها أن تدرك ذلك مادامت قد رأت الأولاد يعذبون الحيوانات ولم تنطق بكلمة اعتراض أو احتجاج .

ويترعج هو جدا لمنظر الأطفال وهم يتفرجون على ذبح الحيوانات فى الريف أو فى السلخانة .. إنه يجد عذرا مقبولا للجزار وأولاده . ولكنه لا يجد أى سبب وجيه لأن يكون للجزارين معجبون وأن يكون لهذه الدماء مصاصون . لا سبب من أى نوع !

ويدافع عن السائقين الذين لا يقفون للأيدى المرفوعة على جانبى الطريق . ويقول إنه شخصيا يفعل ذلك كثيرًا لأنه متعب ، ولأنه يريد أن يتناول غذاءه ككل خلق الله .. ويريد أن يسلم السيارة لزميل آخر سوف يعمل بقية اليوم .

وكان السائق فى غاية الحيوية . فقد كنت أول زبون له . ولا بد أن غضبه سوف يزداد ويصبح غيظًا وحقدًا وثورة على آخر زبون يركب معه فى هذا اليوم ..

ونزلت .. ورأيت سيدة حاملا وفى يدها طفل صغير أشارت إليه . وانشغلت عن النظر إليه .. ثم عاودت النظر بسرعة ولم يكن عندى سبب واضح لذلك .. ووجدته قد مضى دون أن يرثى لحال هذه السيدة التى تحركت شفتاها ويداها تلعن قسوة الإنسان على الإنسان !

الدائرة ..

ما الذى يريح أى إنسان إذا سافر إلى الشاطئ أو إلى الريف أو إلى الخارج بعيدًا عن مكان عمله . هناك أسباب كثيرة . ويمكن أن توضع هذه الأسباب تحت هذه العبارة : كسر الدائرة !

فنحن « ندور » فى حياتنا فى دائرة ضيقة أو واسعة ..ولكنها دائرة فالموظف

يدور فى دائرة صغيرة . وصاحب الأعمال الحرة يدور فى دائرة واسعة . ولكنه يدور مثل أى ثور فى ساقية . صحيح هناك فارق كبير بين الإنسان والثور . ولكن إذا نحن ناقشنا تصرفاتنا جميعًا نجد أنها تدل على أننا لا نفكر وإنما نتصرف وكأن عيوننا مغمضة . وكأن عقولنا ملغاة . وكأننا نمشى على أربع . وكأنه لا حرية لنا فى كل ما أصابنا . يعنى لا فرق بيننا وبين الثور . وربما كان الفارق الوحيد ، هو أن الثور لا يعرف معنى أو سر هذه الدوخة وأننا نعرف ولكننا لا نستطيع أن نتخلص من الساقية أو من الدوران حولها وعيوننا معصوبة . وهى معصوبة برغباتنا وشهواتنا وطمعنا وطموحنا ومخاوفنا وحرصنا على الحياة والاستمرار حتى الموت !

والراحة هى أن نكسر هذه الدائرة .. فنخرج من البيت أو لا نخرج .. ونذهب إلى مكان آخر غير العمل . ثم لا نعمل . وننزل إلى البحر لنستحم . مع أن الماء موجود فى البيت .. ولكن الاستحمام فى البحر مختلف : إننا لا نخلع ملابسنا كاملة ؛ ثم لا نغطس تحت الماء وإنما نلقى بأنفسنا فيه وعلى مرآى من الناس ثم نستغرق فى هذه الحركة البسيطة . وهذا الاستغراق هو إغراقنا لكل أفكارنا العادية . وكل هذه التصرفات هى كسر لدائرة الأعمال والأفكار التى اعتدنا عليها كل يوم .. فكسر الدائرة هو خروج عن ساقية اسمها العادات اليومية .

ومن الممكن أن نجد على الشواطئ نفس الناس الذين نعرفهم . وهذا بديهى . ولكننا لا نلقاهم فى مكاتبنا ولا نلقاهم والتليفونات على آذاننا ، والقهوة المرة فى أفواهنا ، والدخان يخنق الجميع .. إننا نلقاهم بلا جدران وبلا ضوضاء وبلا مداراة . وهذه هى الراحة .

وبعض الناس عندهم القدرة على الراحة بسهولة . وبعض الناس لا يستريحون إلا بصعوبة . والسبب فى ذلك : أن هناك أناسًا قادرين على تكسير الدائرة وتحطيمها بسهولة ، ولأتفه الأسباب . وهذه موهبة . ومعظم الناس يجدون

أنفسهم مكبلين بالعادات الخانقة لحركاتهم وأفكارهم . ولذلك يتحركون بصعوبة .. أو يخرجون برءوسهم من حديد الدائرة اليومية ، ثم يعودون برءوسهم وقلوبهم وأفكارهم إلى ما وراء الحديد . وكأن شيئًا لم يكن !

الأطفال أحسن نموذج للعب بالدوائر الصغيرة والكبيرة والحيوانات أحسن نموذج للحياة والحركة فى داخل الدوائر الغريزية مئات الألوف من السنين .

ونحن الكبار فى مركز وسط بين حيوية الأطفال وجمود الحيوانات .. وأكثرنا قدرة على الراحة ، أكثرنا قربًا من الأطفال !

ثمن الراحة

الراحة – مثل أشياء أخرى كثيرة – مسألة نسبية . فكم من صاحب عمارة يصعد الدرج الصغير وقد سانده البواب . المنظر عادى . ولكن صاحب العمارة يحسد البواب الذى فى صحة جيدة . ويمضى النهار كله والليل جالسًا فى الهواء الطلق وظهره إلى العمارة . لا يحمل هم العمارة والصيانة والسكان والعوائد والبلدية وأقساط البنك .. لا شىء من ذلك إنه يجلس واضعًا ساقًا على ساق .. فإذا جاء واحد من السكان وقف نشيطًا ويجرى بضع خطوات ويفتح المصعد . ويجلس وفى نهاية الشهر يتقاضى مكافأة على ذلك ، ومن هذه المكافآت يذهب أولاده إلى المدارس وعندهم هدف واحد : ألا يكون الواحد منهم بوابًا وإنما أن يكون صاحب عمارة يقف له البوابون !

وصاحب السيارة يحسد السائق . فالمقاعد الأمامية مريحة .. والسائق يجلس طول النهار ويمشى من شارع إلى شارع .. ويقابل عددًا كبيرًا من الناس ... هذا شرقى وهذا غربى .. والسيارة تجرى من تحته .. ولا شأن له بالبنزين أو الزيت

أو قطع الغيار أو الضريبة .. هو جالس والسيارة تجرى .. أما صاحب السيارة فيده على بطنه طول اليوم . وهو لا يجلس على مقعد مريح مثل السائق وإنما يجلس على مقعد خشبي فى أحد المقاهى .. ويتكدس لحمه على بطنه لأنه لا يتحرك . ولذلك تجد صاحب السيارة يقول لك : السيارة لمن يركبها وليست لمن يملكها — يقصد أن السائق هو المالك الحقيقى والمتفع الحقيقى بهذه السيارة !

سمعت طبيبًا كبيرًا يقول لى إن حياة أى طبيب كبير فى السابعة والثلاثين .. فى هذه السن يكون قد فرغ من دراساته العليا .. ويكون قد فتح له عيادة ويبدأ فى تربية الزبائن .. والزبائن لا تجىء إلا للطبيب الذى يتعب معهم أكثر ويتقاضى أقل .. حتى يصبح معروفًا ، ولا يكون معروفًا إلا فى الثانية أو الثالثة والأربعين . فإذا أصبح معروفًا مشهورًا ، كان من الواجب أن يدفع ثمن الشهرة .. والشهرة ثمنها المزيد من التعب والتضحية .. ويبلغ السابعة والثامنة والأربعين .. وهو لا يتوقف عن العمل فى الجامعة وفى العيادة وفى المستشفى وفى استجابة نداءات المرضى فى أية ساعة من ساعات الليل والنهار .. وأن يقوم بدور الملاك الذى لا يكف عن الابتسام والذى لا يعرف التعب .. وفجأة يجد نفسه قد تجاوز الخمسين واقترب من نصف المسافة بين الخمسين والستين .. ويريد أن يستريح ويكون قد تجمع له مبلغ كبير من المال .. ومع المال الكثير من التعب والأمراض .. وفى النهاية يجد نفسه عاجزًا عن الاستمتاع بما جمع من مال أو شهرة .. ويكون عاجزًا عن خدمة المرضى الذين جاءوا إليه تحت تأثير الشهرة .

ويتجاوز الستين عامًا .. ويحس أنه يهبط السفح الآخر للجبل . وفى نفس اللحظة يكون قد لمع أطباء آخرين جددًا بدأوا يسحبون الضوء من حوله إليهم — وهى سنة الحياة ..

وفى هذا الوقت يكون التمورجى الجالس على باب العيادة قد جمع أموالا كثيرة ..

ويتعب أقل .. وفى استطاعة هذا المرض أن يستريح من العيادة ومن قرف الدكتور الذى تقدمت به السن ولم يعد يزوره أحد .. فهو ليس فى حاجة إلى فلوس .

إنها نفس الشكوى : الطبيب يحسد المرض ومالك السيارة يحسد سائقها .. وصاحب العمارة يحسد بوابها : والأحياء يحسدون الموتى على كل شىء !

إنها مسألة نسبية !

العلاج بالقراءة

هناك خطأ واضح فى النظر إلى المستقبل فى تربيتنا ونحن أطفال ونحن كبار أيضًا . فقصص الأطفال هى محاولة لتجسيم المعانى حتى يسهل على الطفل أن يلمسها بيديه أو بعينيه . فقصص الأطفال كلها تدور حول حيوانات وطيور وأدوات تتكلم . أى كلها تنطق كما ينطق الطفل ليصبح من السهل عليه أن يعيش معها أو هى تتعايش معه . وبعد أن نروى له هذه القصص نضع فى النهاية المعنى الأخلاقى أو الوطنى أو السياسى أو الجمالى الذى نريده .

فإذا ذهبنا إلى أكثر من ذلك ورحنا نروى للطفل شكل الحياة فى المستقبل وفى الكواكب الأخرى ، تكون هذه القصص بعض الوقت . أى فى السنوات الأولى من حياته ، وبعد ذلك يكبر الطفل ويتجه إلى أشياء أخرى مختلفة تمامًا عن التى جاءت فى قصصه وهو صغير . وهذا سلوك غريب جدا منا . فالطفل الصغير الذى نحاول أن نضع له أجنحة طويلة ليطير بها بعيدًا عن الأرض ، ننزع منه هذه الأجنحة عندما يكبر . فبدلا من أن يواصل الطيران بأجنحة أخرى جديدة ، فإنه يجد نفسه على الأرض . أى أننا لم نكمل به ومعه الرحلة إلى عوالم أخرى . فقصص الخيال والجمال تتوقف فى الوقت غير المناسب . ويشعر الطفل الذى كبر فجأة أن

الخيال وعالم الغد من « خرافات الطفولة » !

وهذه هى الغلطة التربوية الفظيعة . فلا يوجد عندنا أدب أو صور للغد . لا يوجد عندنا ما يشغل خيال الشباب والرجل عن الحياة فى المستقبل . بل إن كل الدراسات التى يتلقنها الأطفال الكبار والشباب هى عن الماضى . فنحن جميعًا غارقون فى ماضينا . وعندما نحاول أن نرفع رءوسنا من تحت أهرامات الماضى تكون أعناقنا ورءوسنا قد تعبت ولم تعد قادرة لا على الهرب من الماضى ، ولا على النظر إلى الحاضر. أو تكون نظرتنا قد اتخذت أسلوبًا واحدًا هو : أن كل ما ننظر إليه يبعث على الأسى .. وإذا أصبح هذا أسلوبنا فى النظر إلى ما حولنا ، كانت حياتنا مثل نظرتنا : مكدودة . وأصبح الماضى والحاضر كلاهما يبعث على التثاؤب !

إذن ما الذى يجب أن يطلق الحياة فى حياتنا ؟ ما الذى يشيع الضوء والهواء فى دنيانا ؟ لا شىء إلا النظر إلى المستقبل . إلا التفكير فى كيف تكون حياتنا غدًا .. أوكيف يجب أن تكون . إن قوائم الكتب التى تصدر فى روسيا وأمريكا وأوربا عن الحياة غدًا لا عدد لها . فهناك عشرات المؤلفين يصورون للإنسان كيف يمكن أن تنحل مشاكله اليومية .. كيف يمكن أن تخف آلامه وأوجاعه .. كيف يسخرون قدراته الإبداعية من أجل حياة أفضل . كيف أن الإنسان الذى أبدع كل شىء حوله ، قادر على أن يحقق المعجزات من أجل الحياة والسلام . إن مثل هذه الكتب فرصة عظيمة لكى يروض الإنسان عينيه وخياله على ما هو أجمل وأروع .. إنها فرصة علاجية لكى يريح الإنسان نفسه من ماضيه وماضى الإنسانية ويتجاوز حاضره إلى ما هو أحسن ، أو ما يجب أن يكون أحسن .. إنه عن طريق الخيال تتحقق للإنسان معجزات المستقبل ، هربًا من الماضى وإنعاشًا للحاضر وسعادة بالحياة التى يجب أن يكون لها مستقبل !

عذاب كل يوم

تلقيت من صديق فى أمريكا خطابًا أدهشنى . فهو يعاتبنى بشدة . وأعدت قراءة الخطاب ولم أفهم سبب العتاب . وبعثت أستوضحه . فرد لى خطابى بسرعة فائقة .. وانزعجت عندما رأيت ما جاء فى هذا الخطاب ..

ليس فى الخطاب شىء من نوع خاص . وإنما كلام وسلام . وربما كان عيب هذا الخطاب أنه « عمومى » أى من الممكن أن أوجهه إلى أى إنسان فى أى مكان وبأية مناسبة .. إن هذا الخطاب يشبه الجوارب الجاهزة التى تناسب كل طول وكل عرض . وهو لذلك لا يدل على شىء وفى نفس الوقت لا قيمة له . ولكنه صدمة لمن يقرؤه . لأنه يتوقع منى حديثا وديًا أو أخويًّا .. أى حديثًا خاصًّا ، لا يجد إلا خطابًا على شكل منشور دورى !

وساءلت نفسى : ولكن ما ضرورة أن أكتب هذا الخطاب ؟ لابد أن تكون الضرورة هى أن أبين له أننى مشغول وأن هذا الخطاب أكبر دليل على ذلك .. وأنها محاولة منى أن ألتفت إليه بعض الوقت . فلما حاولت كانت نظرتى له ببعض عينى وبجانب من وجهى . والأفضل طبعًا ألا أفعل شيئًا من ذلك – وهذا هو المعنى الذى انتهيت إليه أخيرًا .. وعذرته واعتذرت له !

أكثر من ذلك أننى وجدت فى الخطاب كلمات بدلا من كلمات أخرى : فبدلا من كلمة الحب وجدت كلمة الحرب .. وبدلا من التعبير كتبت « التعبور » .. وبدلا من أن أجعل تاريخ الخطاب ٢٠ نوفمبر كتبت ٢٠ أكتوبر .. وحتى عندما

ناديته باسمه فى الخطاب وضعت اسما آخر.. وهى كبرى الخطايا فى أى رسالة شخصية بين صديقين !

وليس من الصعب أن يجد الإنسان تفسيرًا لهذا كله . ولكن هل يقبل الصديق أن تغير اسمه . وأن تنشغل عنه إلى هذه الدرجة . وأن تحدثه وأنت عينك وأذنك ولسانك وعقلك فى ناحية أخرى .. أيًّا كانت هذه الناحية !

وهذا يذكرنى بقصة لأديب إيطاليا ألبرتو مورافيا اسمها « صاحبة العقاب » . وقد ظهرت هذه القصة على الشاشة بطولة صوفيا لورين .. القصة حدثت أيام الحرب العالمية الثانية . ودخول الأمريكان إلى إيطاليا – فى القصة أن سيدة تموت .. وأن واحدا من أبنائها يطلب من أمه أن تسامحه قبل أن تلقى الله .. وتقول له الأم : سامحتك ياكارلو ! .

وينهار الابن . فلم يكن اسمه : كارلو..

وإنما كان له اسم آخر.. ولكن لأن هذا الابن لا يعرف قصة الأم التى أحبت رجلا غير أبيه اسمه : كارلو ، فقد رأى أمه تتجاهله فى آخر لحظة .. وراح يصرخ : كاذبة ، مجرمة .. كان يجب أن أعرف ذلك من البداية .. وألا أقطع هذه الأميال الطويلة لكى أركع عند قدميك ! ! وتموت الأم .. وكان فى استطاعته إنقاذها . ولكنه لا يعرف من حياتها كلها إلا هذه اللحظة !

ولم أجد عذرًا لصديقى إلا أن أشير إلى هذه القصة .. على أمل أن يستنتج الباقى مع افتراض حسن النية .. لأن أية لحظة هدوء وصفاء ليست إلا قطرة من ماء عذب فى بحر مالح عاصف بالعقل والقلب معًا – فهذه هى الحقيقة فى هذا الخطاب وفى تصرفات أخرى كثيرة فى حياتنا اليومية – مع الأسف !

معنى السعادة

هناك ثلاثة أنواع من الناس : واحد يريد أن يعيش ، وواحد يريد أن يستفيد ، وواحد يريد أن يفيد !

والذى يعيش فقط هو مثل النباتات والحيوانات ، لا يسأل نفسه ما معنى هذه الحياة .. ما معنى حياته ؟ .. إنه يريد أن يأكل ويشرب وينام وأثناء النوم تجىء الأطفال ويتقدم فى السن ويموت . وهذا النوع من الناس ليست له مشكلة . ولذلك فهو يقرأ ولا تهمه القراءة ولا يهمه أن يفكر فيه أحد ، لأنه لا يفكر فى أحد . ولهذا السبب سأكتفى بهذا الكلام عنه !

أما الذى يريد أن يستفيد من الحياة ، فهو ينظر إليها على أنها صفقة تجارية . وهو يصحو وينام على سؤال واحد : ما الذى كسبته اليوم ؟ ومن أجل المكسب فإنه يدوس الناس والقيم والإنسانية . فمثله الأعلى هو النجاح .. والنجاح بأى ثمن .. ولكى يحقق النجاح فإنه ينافس الآخرين . وعندما ينافسهم يكرههم ويحقد عليهم والحقد يدفعه إلى الجريمة . والجريمة تكبر فتصبح حربًا .. تشنها دولة على دولة .. دولة تريد أن تبيع بالقوة وتكسب بالقوة . ومن أجل المكسب فإنها تحرق الزرع وتطحن الحيوانات .. وتدفن الناس .. وحيث توجد التجارة الجشعة توجد الطبقات . والحقد الطبقى . والاحتكارات .. والاستغلال والانهيارات العصبية . والصفحات السوداء فى تاريخ الإنسانية هى التى كتبها التجار بدماء الزبائن .. بدماء المستهلكين !

والنوع الثالث هو الذى يسأل نفسه دائمًا : ما الذى أستطيع أن أضيفه لحياة الناس .. ما الذى أستطيع أن أعطيه .. إنه فنان .. يتذوق الحياة ويفهم معناها ويحرص على أن يقدم للناس شيئًا يجعل لحياتهم معنى . ويجعل للمعنى هدفًا ، ويجعل الطريق إلى الهدف مفروشًا بالحب والسلام والتعاون بين الناس ، إن مثل هذا النوع من الناس يعطى راحته .. ويبذل حياته .. وكل الذين ساهموا فى إسعاد الإنسانية لا يمكن أن يكونوا تجارًا للحياة .. ولا يمكن أن يكون الاستغلال أسلوبهم .. ولا النجاح بالدماء هو شعارهم من أجل إسعاد البشرية !

وإذا كانت السعادة هى الغاية التى يريدها كل إنسان فإن أحدًا لا يعرف – بالضبط – ماذا تعنيه كلمة السعادة . إنها مثل الصحة – نحسها ولا نعرف ما هى – إنها مثل الكهرباء نعرفها ولا نراها .. فالسعادة ليست برتقالة نقطفها ونقشرها ونأكلها بعد ذلك .. إنها مجموعة أشياء كثيرة معًا .. وإذا بحثنا فى السعداء نجد أنهم هؤلاء الذين يغرسون شجرة ويبنون بيتًا ويؤلفون قصيدة .. هؤلاء الذين يملأون وقتهم بالعمل المفيد .. فالسعادة هى أن يجد الإنسان نفسه مشغولا بشىء مفيد .. وأن يجد هذا الانشغال لذيذًا .

للعظمة أمراضها

أحسن هدية تلقاها الفقراء فى نهاية العام الماضى : أن عددًا من الأغنياء قد أصابتهم الكوارث والأمراض .

فمثلا : المليونير جيتى قطعت أذن حفيده .. وأصبح هذا الحفيد الغنى بلا أذن ، بينما ملايين الفقراء يلعبون فى آذانهم فى وجه الريح والبرد .. كأنهم يقولون : الحمد لله على الفقر وسلامة الأذنين !

والمليونير الأمريكي إريك لونسون قد انكسرت ساقه وهو يحاول أن ينقذ قطة صغيرة . ويندهش الأطباء كيف انكسرت هذه الساق . فالمسافة التي قفزها لا تزيد على متر واحد .. ثم إن هذا المليونير في صحة جيدة . ونسبة الكلسيوم الموجودة في عظامه متوافرة ، وكل شيء يدل على أنه من المستحيل أن تنكسر ساقه .. ثم إن وزنه حوالى ٥٢ كيلوجرامًا وسنه ٢٥ عاما – ولكنه غني !

والسيدة أديل كلامديون من أغنى سيدات أمريكا قد اختلفت مع أقاربها ومع أقارب زوجها الذي ورثت عنه عشرة ملايين دولار ولما لم تنجب منه ولدًا ولا بنتًا قررت أن توصي بثروتها لكلابها واشترطت أن تروج كلابها من نفس الفصيلة . وأن تؤول ثروتها بعد ذلك الى فقير هندي قد رأته في كلكتا ، وتعلمت منه الصبر على المكاره . ولكن القدر لم يرحم هذه السيدة : فقد مات الفقير الهندي .. ثم مات اثنان من كلابها ، أحب هذه الكلاب إليها . ويقول الأطباء إن سبب الوفاة نوع من التسمم ويؤكد البحث الجنائي أن أحدا لم يضع السم للكلاب ، بل يستحيل ذلك .. ويقول الطبيب إن معلوماته تقف عند هذا الحد ، وليس أمامه إلا أن يقول : إنه مرض العظماء .. أو مرض كلاب العظماء ..

وأوصت المليونيرة إن هي ماتت فجأة فكل أموالها لأحد مستشفيات الكلاب . وماتت السيدة فجأة .. ولم يستفد أحد من الناس بمليم واحد من ثروة هذه السيدة التي لا تكن أي شعور نبيل لأي إنسان !

وشكت أرملة الرسام الكبير بيكاسو من ألم شديد في فخذها . وقالوا : روماتزم .. وقالت هي : إرهاق .. وانتقل الألم إلى ساقها الأخرى . وقيل : روماتزم . وقالت هي : إن ملايين بيكاسو لم تمكنها من النوم شهرًا ..

وانتقلت الأوجاع إلى ذراعيها وكتفيها وعمودها الفقري . وعالجها د . روجيه بايو وجاء تشخيصه للمرض بأنه : نقرس .. أي مرض العظماء . ثم عاد يقول :

إن أربعة من أجداد بيكاسو قد أصابهم هذا المرض وماتوا . ولم يكن واحد من أجداده من الأغنياء ..

إذن هو مرض العظماء .. أى أجداد العظماء . المهم أن هذا المرض لابد أن يصيب فى طريقه – ذهابًا وإيابًا – أحد العظماء .. فالعظمة مرض يعدى بأثر رجعى أو يعدى بصورة تقدمية .. كأن العظمة والثراء مرض أو هكذا يستريح الناس والفقراء العاديون عندما ينظرون بشىء من الغيظ أو من الحقد إلى الذين هم أكبر أو هم أغنى !

بحكم العادة

ما هذا الذى فى داخل كل واحد منا ؟

كيف أن فنجان قهوة يعدل مزاجك . أو كيف أن سيجارة من نوع معين إذا أشعلتها وجلست على مقعد وتراجعت إلى الوراء عدلت رأسك ، وكيف أنك لو جلست على نفس المقعد ، وكانت السيجارة من نوع آخر ، ينقلب مزاجك ، وتحس كأن الكرسى هو الذى فوقك وأنك فقدت توازنك ؟ وكيف تتناسق قواك ورغباتك إذا دخلت دورة المياه وجلست ورحت تقلب فى الصحف ، ثم كيف ترتبك ويتلاشى كل شىء فيك إذا فوجئت بأنها ليست الصحف التى اعتدت عليها ؟ أو إذا كانت الصحف التى اعتدت عليها وقرأت فى الصفحة الأولى خبرا أزعجك ؟

ثم ما معنى أنك إذا وقفت أمام المرآة ، ووجدت أن عينيك منفوختان بسبب كثرة النوم تتضايق ؟ وكيف أنك لو نهضت من نوم متقطع وكنت مستريحًا برغم ذلك ووجدت احمرارًا فى عينيك فإن هذا يزعجك ؟

ما الذى فى داخلك . ما علاقة الشاى والقهوة والسيجارة والصحف بهذا الذى فى داخلك ..

ثم ما الذى تراه فى المرآة كل يوم .. إنك لا تعرف وجهك بوضوح .. لأنك تراه كل يوم ! بينما لو رأتك امرأة لدقيقة واحدة فإنها تستطيع أن تقول لك إنك حلقت ذقنك اليوم وأن جانبًا قد حلقته والجانب الآخر قد نسيت بعضه . مع أنك رأيت نفسك ساعة أمام المرآة ..

ما الذى يشغلك وأنت تنظر فى المرآة.. ثم بأى قوة فى داخلك ترى وتفكر وتقلق وتستريح . كيف أن القليل جدًّا من السكر فى الفنجان يضايقك .. ثم كيف انعدام السكر فى الفنجان يضايقك .. ما هو هذا الشيء الذى يجب أن يكون « مظبوطًا » لكى تنظبط قدراتك أو إحساساتك .. أو نشاطك .. أو استعدادك للعمل أو للفسحة .. ما هذا ؟

قديمًا جدًا قال الحكيم بقراط : إن الجسم الإنسانى يجب أن تتعادل فيه نسب الأشياء . وقد فسر المؤرخون هذه العبارة الموجزة بأن الإنسان يجب أن يأكل قليلا ويشرب قليلا . ولم يكن الإنسان قد اهتدى إلى التدخين والتليفونات والمواصلات والدرجات والعلاوات والبطاقات والعيادات . ولكن بقراط يطلب منا أن تكون هذه الاحتياجات أو الضروريات متعادلة أو متقاربة فى أهميتها بالنسبة لنا . وهى مسألة صعبة جدًّا . ولا يقدر عليها إلا بقراط الذى كان قليل الطعام قليل الشراب .. وقليل النظر فى العالم كله !

وأسهل ما يقال هو : إن الإنسان يجب أن يفعل ما يستريح له . فالعادة مهمة والإنسان حيوان يصنع العادات ويصبح أسيرًا لها وفى ذلك راحته . فالذى اعتدت عليه يجب أن تعمله . ولكن هل كل إنسان قادر على أن يطبق عاداته هو برغم عادات الآخرين .. هذه مشكلة !

ولذلك فالإنسان يعانى من أزمة خطيرة فى حياته : إنه عاجز تمامًا على أن تكون له عادة واحدة فى أى وقت لأنه ليس وحده فى هذا البيت أو هذا الشارع أو هذا الأتوبيس أو هذا البلد !

قضية مصرية فى ڤينا

المصريون فى فينا يتحدثون عن أعجب قضية عرضت على المحاكم النمساوية . إنها قضية أب مصرى . إنه يعمل وزوجته أيضًا . وفى يوم عاد إلى البيت ولم يجد أطفاله . ولما سأل قيل له إن عربات المطافئ جاءت وفتحت البيت بالقوة . وحملت الأطفال واختفت .

وذهب الأب والام يسألان وقيل لهما : لا يمكن أن يعود لكما هؤلاء الأطفال .

وحاول الأب أن يعرف فقيل له سبب وجيه جدًا . وهو أن هؤلاء الأطفال يبكون طول اليوم . وأن الجيران قد اشتكوا إلى سلطات الأمن . وكان لابد أن تستولى الدولة على هؤلاء الأطفال . لأنه ليس من الإنسانية أن يكون الإنسان قاسيا على أولاده إلى هذه الدرجة . إن الدولة لا تقره على هذه القسوة ، وجيرانه لا يطيقون صبرًا على بكاء الأطفال .

فالأب والأم عاملان فى فينا . ويخرجان من البيت كل يوم ويتركان أطفالها وراء أبواب مغلقة . ولا يجد الأطفال إلا البكاء ، ولا يجد الجيران إلا الصراخ وإلا لعن آباء الأبوين .

كما أن قوات الأمن قد لاحظت أن البيت غير لائق تماما لأن يكون به أطفال . فالبيت ليس نظيفا . لا الأطباق ولا الشوك ولا السكاكين . ثم إنه لا توجد لعب كافية للأطفال . ولاحظوا أيضًا أن وجوه الأطفال ليست نظيفة .

وأن أحد الأطفال يشكو من التهاب فى عينيه . وبالعرض على الطبيب وجد أن الطفل مصاب فى عينه منذ شهور . ولم يعثروا فى البيت على زجاجة قطرة واحدة أو أنبوبة مرهم .

وبناء على ذلك فالدولة ترى أن هذه صورة للقسوة لا يمكن السكوت عليها . ولا تقبل الدولة هذا النموذج السيئ للآباء والأمهات والأطفال . كما أن هذه إساءة للنمسا كلها التى تعتبر إحدى جنات الأطفال فى العالم كله .

ووعد الأب وزوجته النمساوية بالعناية بأطفالها ، ورفضت الدولة تسليم الأطفال . ووعدوا بالانتقال إلى شقة أكبر . وكان لابد أن يعثروا على الشقة أولا ، وهذا مستحيل . ووعدا بأن تترك الأم عملها وتتفرغ للأطفال ووعد الزوج بأن يأتى بمربية من مصر (! !) . ورفضت الدولة تسليم الأطفال ، والرجل دائخ أمام المحاكم والأطفال ما يزالون فى إحدى دور الحضانة يأكلون ويشربون ويعالجون ويرتدون ملابس جديدة .

وإذا ما حقق الأب والأم الشروط التى وضعتها الدولة لتسليم الأطفال فسوف يجدان أنه من المحتم عليهما دفع تكاليف هذه الرعاية التى لقيها الأطفال من الدولة ، مضافًا إليها غرامة كبيرة !

فليس من حقك — فى النمسا — أن تهمل فى تربية أطفالك ، وإذا أهملت فأنت نموذج سيئ تحاول الدولة بكل تاريخها وحاضرها واشتراكيتها أن تستأصلك من المجتمع السليم السعيد فى البلد الذى أنجب أعظم الأطفال وأكثرهم تعاسة : الموسيقار موتسارت !

مسألة أخلاق

رأيت فى مدينة جدة عددًا من المصريين وقد ضاقوا بمصريين آخرين يمشون فى الشوارع ويتكلمون بصوت مرتفع وقد ارتدوا الشباشب والطواقى : وياواد يا حسن ويا بت يا علوية .. أنت يا هباب الطين .. إلى آخر الكلمات التى نجدها فى الأحياء الشعبية .

إنه هذا الشعور بالفضيحة : أن تجد عددا من بنى وطنك فى حالة لا ترضاها . أو لا تطيق أن تراهم وقد جلسوا على الأرض يبيعون صفائح الجبنة البيضاء أو الأرز أو منتجات خان الخليلى . ومن حولهم امتلأت المحلات التجارية العامرة بأبناء اليمن وأبناء حضرموت . وليس للمصريين دكان واحد ... وإنما هم قد افترشوا الأرصفة هذه هى الصورة أو هى المسلسلات التى تعبر إليهم البحر مع كل سفينة قادمة من السويس !

والمطلوب هو أن يصدر تشريع يمنع المصريين من السفر إلى جدة . كيف يمكن أن نفعل ذلك . إذن لابد من أن نمنع بعض المصريين . ولكن على أى أساس يستطيع إنسان أن يمنع مواطنا من السفر ومن أن يحمل معه الهدايا التى حددها القانون . وبعد ذلك كيف نمنعه من أن يبيع هذه الهدايا أو كيف نمنعه أن يبصق فى الأرض أو يرتدى ملابس قذرة أو لا يرفع صوته عند الكلام ؟ كيف ؟ ..

لا يوجد قانون يستطيع ذلك . وإذا استطاع أن يمنع الناس فى مصر ، وهو

لا يستطيع ، فكيف يمنعهم فى السعودية ؟

إننا أمام عدة مشاكل : مشكلة تهريب الأرز ومنتجات خان الخليلى والجبنة البيضاء والحلاوة الطحينية أننا نرى أناسا يتاجرون فى كميات كبيرة جدا . لا يمكن أن تنطبق عليها مواصفات الهدية . بل إن هذا نوع من التهريب . والاتجار فى قوت الشعب . ولابد أن نبحث فى كيفية تهريبها ، أوكيف أمكن تيسير التهريب أو التستر عليه !

وهناك مشكلة السلوك الاجتماعى أو السلوك السيئ الذى يؤدى إلى السمعة السيئة لمصر والمصريين . وهذه مشكلة أخلاقية . ولو أعطيت أذنك لعشرات المصريين لاستمعت إلى أشياء كثيرة تحزنك . ويتساءل الناس عادة : لماذا نحن دون سائر الشعوب نأكل بعضنا البعض . لماذا المصريون هكذا !! وهى أسئلة تتضمن معنى واحدا : أن المصريين هم أسوأ الشعوب . وليس هذا صحيحا . فهم ليسوا كذلك فى بلادهم ولا خارجها . وإذا كانت هناك عناصر سيئة جدا ، فهناك عناصر ممتازة جدا أيضا . وإذا لم يكن الصحيح أن نقول أن كلهم أشرار ، فليس من الصحيح أيضا أن نقول أن كلهم أخيار .. ولسنا وحدنا فى هذه الدنيا الذين انفردنا بالشر أو بالخير .

ولكن المصريين فى الخارج حساسون جدا ويريدون ، ونتمنى نحن هنا ، أن يكونوا نماذج رفيعة للسائح والعامل والمقيم . وسوف يتحقق ذلك بعد وقت طويل من التجارب الشعبية ، وبعد أن يستريح الناس فى بلادهم ، وبعد أن تمتلئ أيديهم وجيوبهم وبطونهم وعقولهم .. فاصبروا عليهم ، اصبروا علينا !

أذواق

أحصيت عدد أنواع الولاعات الموجودة فى أحد محلات مدينة الرياض فوجدتها عشرين شكلا ولونا وحجما . وأثمانها تتراوح بين العشرين جنيها والألف جنيه . وهناك ولاعات بها فصوص من الماس وحبات اللؤلؤ . وهناك ولاعات تتمشى مع زراير القميص وساعة اليد .. وولاعات عليها حروف ، وولاعات عليها عبارات الحظ السعيد . وولاعة عليها قطة الحظ وولاعة عليها أقدام السعادة .. وولاعة تضىء وأخرى موسيقية ، وقد اختفى البنزين من الولاعات واختفت الحجارة وظهر الغاز والبطاريات . وسوف تظهر ولاعات عطرية .. ولا نهاية لتطوير صناعة الولاعات .

ولكن من أجل ماذا ؟ !

من أجل أن يقدم الناس على التدخين فالولاعة تدفعك إلى السيجارة . ولابد أن تكون مصانع الولاعات هى صاحبة المصلحة الأولى فى انتشار التدخين . ولذلك فالولاعات تنميها وتروج لها شركات السجائر العالمية . وهذه الشركات نفسها لا تتوقف عن تطوير السيجارة طولا وتجميلا . فهناك سيجارة مقاس الملك ومقاس الإمبراطور ومقاس سفن الفضاء .. وهناك سجائر مذهبة وسجائر ذات فلتر من الفحم ولكنه من الورق وفلتر من الورق والفحم . وهناك سجائر بالنعناع وسجائر بالليمون وسجائر بالبرتقال ..

وشكل العلبة له دخل كبير فى جاذبية التدخين . فالعلب طالت وعرضت

وقويت جدرانها .. وهذه الشركات تلجأ إلى أحدث الدراسات التسويقية إذا قررت أن تغير لونها . وقد أقامت إحدى شركات السجائر استفتاء عاما على اللون الذى يفضله الزبون . عرضت عشرين نموذجا . ليختار الرجال والنساء والشبان العلبة التى يفضلونها . فلاحظت أن بعضهم يفضل العلبة السادة والتى تجىء عليها الكليات باللون الأحمر .. وفضل آخرون اللون الأسود الذهبى .. وفضل غيرهم أن تكون العلبة حمراء والكتابة بالأبيض الذهبى .. ودرست الشركة حجم جيوب الناس من كل الطبقات وخصوصا جيوبهم الداخلية . ومحتويات هذه الجيوب . وألقت فى الأسواق نماذج مختلفة من العلب . واختارت الحجم المناسب . وجمعت كل رغبات الناس فى ألوان العلبة وحجمها وتنتج هذه الشركة ألوف الملايين من علب السجائر كل عام .

إنها إذن مؤامرة أنيقة على ذوقك ومزاجك وفلوسك .. وصحتك فى النهاية ، إنها خطة مدروسة علميا وأنت ولا أنت هنا . وتظن وأنت تدخن أنك تنفخ والسلام . والمؤكد أنك تنفخ ولكن هذا الهواء الذى يخرج من فمك محسوب بالمليم .. وعندما يداخلك الملل والقرف تجد من يقفز عليك باختراع يغريك ويسيل لعابك ويقوم بتهريب فلوسك من جيبك لتشترى السيجارة وتحرص عليها لماذا ؟ لأنك فى حالة ضيق من نفسك وهذا الضيق يضطرك إلى أن تدخن وعندما تدخن تنسى فى دخان السجائر ضيقك وقرفك وعجزك عن التوقف عن التدخين !

معادلة صعبة

فجأة اكتشف كل واحد منا أنه بلا صديق .

وكانت هذه الحقيقة مؤلمة ومخجلة . بل أحس كل واحد منا أنه يقف فوق سطح إحدى العمارات وأن الخطوة التالية هى أن يرمى بنفسه من فوق أو ينتظر قليلا لعل العمارة تسقط به إلى تحت ! شىء عجيب . كيف هذا ؟

والذى حدث أن برنامجا إذاعيا طلب إلينا أن نستدعى واحدا من الأصدقاء أو أكثر . وإذا لم نستطع أن ندعوه فلا أقل من أن نذكر للسادة المشاهدين أسماء أصدقائنا . وترددنا جميعا ! من الذى نختاره ! ولماذا نختاره دون بقية الأصدقاء ؟ وأكثر من هذا هل هم حقا أصدقاء ؟ وأقسى من هذا ! من هو الصديق ؟ أو من هو صديقى الذى أراه صديقا صدوقا أو الذى أراه مرة كل أسبوع أو حتى كل شهر ؟ وأغرب من هذا : من هو الصديق أو ما هى الصداقة . وكيف ؟

وفجأة هكذا يكتشف الإنسان أنه بلا صديق . ليس له صديق إذ ليس فى الإمكان أن يكون لأى إنسان صديق . وبصراحة : لا توجد صداقة فى هذه الدنيا . وإنما هناك علاقات بين الناس . وهذه العلاقات كالجو : تبرد وتسخن وتهب وتسكن وتعصف وتكون مرة رملية ومرة ترابية .. ثم يصفو الجو .. ويشعر الإنسان أنه وحده على الأرض . أو وحده تحت الشمس أو تحت السماء ! كيف ؟

يجب أن نعترف بأن الناس تباعدوا ولا تسألنى عن أسباب هذا التباعد . إنها إحدى حقائق الحياة الإنسانية اليوم . تباعدوا فى السكن وفى العمل . وإن

الساعات القليلة التى يمكن أن يتقارب فيها الناس هى : المجاملات الاجتماعية أو الأندية الرياضية أو بالصدفة فى الشارع أو عند الطبيب . وأن أحدا لم يعد يناقش أن يعود الناس من جديد إلى حياة القرية حيث يتجاور الناس ويتلاصق الناس وتتشابك أيديهم وأفواههم وآذانهم وقلوبهم . هذا غير ممكن . وليس ممكنا إعادة بيت العائلة . فإن البيت الواحد لا يعرف سكانه بعضهم البعض . ولا يتلاقون إلا على السلم أو فى المصاعد أو الأتوبيس ..

وفى الأسرة الواحدة يتباعد الأزواج والأبناء . هذا فى عمله وهذا فى مدرسته .. أو أن الأبناء كبروا وأصبحت لهم مشاغل أخرى أو بيوت أخرى ..

وفى العمل كثير من الزملاء . أو الأصدقاء ، أو قليل جدا من الأصدقاء بين أبناء المهنة الواحدة .. هؤلاء الأصدقاء كيف هم أصدقاء . هذا هو السؤال . ولا جواب عليه . أو أن الجواب لا يريح . لأنه غير ممكن أن يتقارب الأصدقاء . فكل واحد له عالمه . وكل عالم مليان ومكهرب أو ملبد بالسحب والهموم . وكل إنسان مهموم . وكل إنسان غير قادر على أن يحمل همومه الخاصة ومطلوب منه كصديق أن يحمل عن صديقه بعض همومه . وأن ينسى همومه هو .

وكان من نتيجة هذه الهموم الكثيرة أن أحس كل إنسان بأنه وحده وأن أحدا لايتسع وقته لسماع قصته أو مأساته . ولذلك أصبح للدنيا هذا الطعم المر ، فليس فيها هذا الصديق فإن وجود أى إنسان صديقا ، كان شديد الحساسية له . يحاسبه على الصغيرة والكبيرة ويسرعة يجعل اخطاءه خطايا . ويفقد الصديق . فاذا فقده راح يتحدث عن مزاياه .. ويحاول ان يستعيده . ولكنه لا يستطيع .. وبعد ذلك يلعن الصداقة والصديق .. وفى النهاية يجد انه بلا صديق .. وعندما يصل الى هذه الحقيقة يضع هذه النقطة السوداء فى نهاية كل سطر وكل حديث .

درس فى التربية

ممكن جدا ان تموت زوجة رجل وتترك له أربعة من الاطفال ويتزوج بعدها لتربية الاطفال وفى أثناء هذه التربية تأتى له بأطفال آخرين وتتولى تربية الجميع . أو تربية البعض على حساب البعض الآخر . وبذلك يولد الظلم القائم على التفرقة فى معامله أبناء الزوجة وأبناء الزوجه السابقة ..

ولكن هذا الرجل لم يتزوج بعد وفاة زوجته . وقرر بأن يقوم هو بدوره كأب وكأم فى غياب الأم . وكان قراره بألا يتزوج سببه أنه لايريد أن يضيف إلى شعور أبنائه بفقدان الأم شعورا آخر بظلم الأب لهم ، عندما يأتى لهم بزوجة أخرى .. أو بأم بديله !

وشاءت الظروف أن تموت أخته وزوجها فى حادث سيارة . وأن تترك له أربعة من الأطفال . وقرر هذا الرجل أن ينقل أبناء أخته إلى بيته . وأن يتكفل بتربية الجميع . وأن يطلب من أولاد أخته أن ينادوه : بابا .. ولا يحب أن يسمع منهم كلمة « أونكل » فهو أبوهم جميعا ، وسعيد بأنه نذر حياته لذلك ..

ومضى على وفاة زوجته عشرون عاما ، وعلى وفاة أخته سبعة عشر عاما . وفى استطاعتك أن تتصور معظم هؤلاءالبنين والبنات فى الجامعة الآن . وأنه هو الأب وهو الأم وهو المدرس وهو رجل الدين وهو الطبيب ، ويلقى عظيم الاحترام والامتنان من أبنائه ومن الجيران . ويحمد الله الذى قد يسر له ولأولاده وأولاد أخته ، كل سبل الرزق الحلال .

وهو رجل مثقف ومتحرر أيضًا . ولكن حريته تصبح فى البيت اعمالا محسوبة . فهو لا يدخن فى البيت .. ويدخن خارج البيت . لماذا ! لأنه قرر أن يكون رجلا نموذجيا . وهو يدعو للصلاة ويؤديها . ويطلب من أولاده أن يفعلوا ذلك ويحاسبهم برفق . ويؤكد لهم ان الله قد أعطاهم الكثير ومن الواجب أن يشكروه على ماآتاهم فيضاعف لهم الرزق والحظ والصحة وحب الناس . وكذلك يفعلون ..

وواحدة من البنات .. تقول له :

– ما رأيك يا بابا ؟

– نعم يا حبيبتى .

– هل أتزوج ؟

طبعا . ضرورى . ألف مبروك من هذا الشاب الذكى الذى اختار فتاة جميلة مثقفة مؤمنة مثلك . إننى أحسده !

– إنه زميلى فى كلية العلوم .

– وهل أنت على يقين من احترامه لك وحبه لقيمك الأخلاقية وقدرته على أن تكون له حياة كريمة مستقلة .

– على يقين من ذلك .

– ألف مبروك . وليبارك الله هذا الزواج ..

وتزوجت أولى البنات .. وتزوجت الثانية والثالثة والابن الأكبر .. وأفراح بالزواج وأفراح بالنجاح . وشكر لله الذى وفق الجميع فى كل خطوة نحو السعادة العامة .

وبقية الأولاد فى السنوات النهائية .. وكلما خلت غرفة تحولت إلى مكتبة أو قاعة للاستذكار أو قاعة للألعاب . والبيت لا يفرغ وإنما يمتلئ بالحياة والنور ..

وقال لى صديقى ، الذى لا يريد أن أذكر اسمه وإنما هو يشكر الله الذى أعطاه

الأولاد الناجحين الشاكرين له السعداء بأبوته . والسعيد ببنوتهم جميعا : كلها خمس سنوات لا أكثر .. وبعدها سوف أتزوج . ما رأيك ؟ .

قلت : أب مثالى . وأم مثالية . وأخ ومدرس وطبيب ومصلح اجتماعى .. أنت مثل عليا . أنت الخير أنت الحب . أنت نادر فى هذا الزمان !

مأساة هذه القرية .. وغيرها

لم أكن أعرف أين تقع على خريطة مصر أو الجيزة قرية اسمها « نزلة أبو مسلم » .. ولكن أخيرا جدا مررت بها أزور أحد أقاربى الذى يملك حديقة هناك . وسمعت العجب عن الجمعية الزراعية هناك . أو على الأصح فرع الجمعية هناك .

فى معظم الأوقات لا تجد الموظفين . ثم إنهم يخضعون للوائح وقوانين لا نعرفها فى مصر كلها .. ثلاثة أيام إجازة فى الأسبوع . هكذا يقولون لك .. وإذا وجدت الذى يبيع فلن تجد الذى يقبض الفلوس . وسمعت أن هذا القريب الطيب ذهب إلى الجمعية ليشترى بعض المبيدات الحشرية . فقيل له : تعال غدًا .. وجاء الغد وذهب الرجل . فقيل له : أهلا وسهلا بك غدا لأن الست التى تقبض الفلوس إجازتها اليوم . وفى اليوم التالى ذهب الرجل وبمنتهى الصبر قال : هل جاءت الست ؟ قالت الست : نعم .. أهلا بك غدا لأن الرجل الذى يبيع إجازته اليوم . فتعال يوم السبت لأن غدا إجازة عادية . ولابد من يوم السبت لأن الأحد إجازة ! .

وتندهش إذا ذهبت كما اندهشت أيضا : كيف نقدم الخدمات للفلاحين ؟ كيف يمكن أن نضع النموذج العملى أمام الناس ؟ كيف يكون الذى تعلم قدوة

حسنة لهؤلاء الذين لم يتعلموا . ولن يتعلموا قبل وقت طويل ..

أذكر أننى رأيت فيلما هنديا يصور حياة الفلاحين . والذى أذهلنى فى الفيلم أن رجلا ذهب يشكو للطبيب البيطرى أن زوجته مريضة . ولم يرد الرجل .. ثم قال له إن الثور الذى يملكه مريض . فرفع الطبيب رأسه ليستمع إلى مزيد من إيضاحات الفلاح الهندى . ونهض الطبيب ليذهب لعلاج الثور . وفى الطريق سأله الطبيب : أيهما أكثر مرضا : زوجتك أو الثور؟ فقال الفلاح : كلاهما مريض . وسأله الطبيب : إذا كان لابد أن أبدأ بالعلاج فأيهما تختار؟ فقال الرجل : زوجتى مريضة لأن الثور مريض . وقال الطبيب : يعنى أنت تريد منى أن أعالج الثور أولا لعل هذا أن يشفى زوجتك ! وهز الرجل رأسه قائلا : نعم .

ويحكى لنا الفيلم أن الطبيب ذهب لعلاج الثور .. ولم يشأ أن ينظر إلى الزوجة . ومات الثور . وماتت الزوجة ليظهر لنا الطبيب وهو يبكى فى نهاية الفيلم ..

فلم يكن هذا الطبيب بيطريا وإنما كان طبيبا بشريا .. وظهر الفلاح الهندى يبكى على زوجته والثور ..

أما الحسرة فهى التى رسمها المخرج على وجوه المتفرجين أسفا على حالهم — وعلى حال أهل نزلة أبو مسلم !

البحث عن حل

أريدك أن تتصور المأزق الذى وقعت فيه . أو سوف يحدث لى بعد ذلك .

إننى أمام إنسان يركب سيارة بسرعة وينظر فى المرآة التى أمامه ليرى ما وراءه .. والإشارة الحمراء دامية أمامه .. ثم هو متجه إلى تقاطع .. ويدوس على البنزين .. ولا يسمع تحذيرات الناس من حوله .

والمطلوب الآن : أن يرفع رجله من فوق البنزين .. أو يقفز أى إنسان آخر ويتجه نحو هذا المقعد . ويوقف السيارة تماما . ولكن المشكلة الآن : أنه لا يوجد وقت كاف لاتخاذ مثل هذا القرار الحيوى . وعلى ذلك فسوف يحدث ما لا يدرى به أحد . مأساة .

بعبارة أخرى : هذا رجل أعرفه . ولكن الأيام باعدت بيننا . فلم أره من وقت طويل وأكاد لا أعرفه . فقد تغير تماما . سافر كثيرا . وتقلب فى البلاد .. أو قلبته البلاد ولعب به الناس . إنه إنسان مختلف . عرفته بصورة أخرى . كأنه أدخل أحد الأفران التى تراها فى السينما .. دخل من ناحية إنسانا ليخرج من الناحية الأخرى شيطانا . وعنده أسباب كثيرة لهذا التحول العظيم . فقد وثق بالناس كثيرا . فعاقبوه على ذلك . ثم عاد لا يثق بالناس لا كثيرا ولا قليلا ، فعاقبوه على سوء الظن المطلق . وأصابته الحيرة بين ما هو خير وما هو شر.. بين الناس الذين يحبهم ، أو كان يحبهم ، أو ضرورى أن يحبهم ليستريح إليهم نفسيا .. وبين الذين لا يطيق حبهم ، ولا يستطيع ان يصارحهم بذلك . ولا أن يجاهر بصدى ذلك فى نفسه .

أما الذى أصابه فهو نوع من « الكفر الاجتماعى » .. كفر بالناس . وحتى إذا كان هناك أى أمل ، فليس هو الشخص الذى يقدر على ذلك ..

وفى هذه المحنة الفظيعة ظهرت فى حياته سيدة . رفضها أول الأمر .. ثم أقبل عليها بعد ذلك ليزداد رفضا لها . ثم رثى لحالها ، فهى أيضا صاحبة مأساة . وما زال يستمع إليها وتتحرك فيه كل مواجع الإنسان .. وأصبح هو مجموعة من الأطراف والأغصان الحانية عليها . وقفزت السيدة على أغصانه كأى بلبل يغنى له ويتغنى بمحاسنه .. ومالت الشجرة ، وانهار الرجل . وأحبها . وكان ذلك بسرعة أذهلت السيده وازعجتها أيضا . ولكنها لا تعرف ما الذى حدث له ، ولا ما الذى انكسر فى أعماقه .. ولا كيف أنها جاءت لتنقذه من الانهيار الشامل .. فانهار ..

واختفت السيدة لتظهر مع رجل آخر .. وفى التليفون أخبرنى هذا الصديق أنه سوف يقتلها وينتحر . وأقفل التليفون .. ومطلوب منى أن أحول بين المسدس وقلبها ورأسه بعد ذلك . ولا أعرف أين هو ولا من ينقذه من هذا القرار ! ولا أعرف أين أجد هيتشكوك ليختار نهاية أهدأ وأفضل لنا جميعا !

بأنفسنا نبدأ

عندما كنت فى أثينا منذ أكثر من سنة تذكرت مدينة الإسكندرية ونظافتها وبشاشة الوجوه فيها ، منذ خمسة وعشرين عاما . ما الذى أصاب الإسكندرية ومدنا أخرى كثيرة فى مصر . يقول م . ى المراقب العام بالجمارك بالإسكندرية لعل السبب هو أن اليونانيين كانوا يملأون الإسكندرية وأنهم كانوا سبب نظافتها . ثم رحل اليونانيون ، ويشير إلى حى « الإبراهيمية » الذى عاش فيه اليونانيون ، وكان هذا الحى نموذجا للنظافة .. ويروى هذه النكتة عن واحد يونانى سمع بائعا ينادى

على البلح ويقول : يا للى نايم فى العسل نوم – ولم يكد اليونانى يقترب من البلح حتى طار ألوف الذباب فقال له اليونانى : خليه نايم فى العسل ! وانصرف الرجل ..

ويقول م . ى إنها ليست نكتة ، إنها حقيقة الآن تعال تفرج على الإبراهيمية وعلى الذباب والهباب والتراب النائم فى العسل وفى البصل !

وليست الإسكندرية وحدها التى انفردت بهذا النائم فى العسل وفى الوحل ، وإنما فى بلادنا مدن أخرى كثيرة : فى القاهرة والجيزة .. وفى مدينة المنصورة بلدى ، لا تكاد تنزل من محطة السكك الحديدية حتى تشعر أنك أخطأت الطريق إلى مدينة أخرى فى القرن العاشر الميلادى .. وإلا فما علاقة الخيول والبغال واصطبلاتها الملحقة بمحطة المنصورة ثم ما هذا الذباب والوحل والزفت فى الشوارع ثم كيف يسكت الناس على ذلك كله ؟. كيف لا يقول : آه .. كل من يتزحلق على الأرض أو تتلوث ثيابه ..

من الذى نلومه ؟ لا يمكن أن نلوم الاجانب لأنهم خرجوا . فهل كان من الضرورى أن يبقوا فى مصر ، حتى لو كانوا أصدقاءنا اليونانيين .. هل من الضرورى أن نظل ضيوفا على كل الأجانب ؟. هل من الضرورى أن نعيش تلاميذ فى مدرسة كل أجنبى يعلموننا الأكل والشرب وعدم البصق على الأرض وإدارة وجوهنا للحائط .. إلخ .

إنه الإهمال العام .. إنه التراخى الشعبى .. إنه التفكك الإدارى .. إن قبضتنا قد اتسعت أصابعها على كل ما هو واجب .. ربما كان اليأس العام سببا معقولا .. وقد أدى هذا اليأس إلى الشعور بعدم جدوى أن يكون الإنسان مطيعا ملتزما نظيف اليد والرجل والبيت والشارع واللسان ..

فما هى بداية النظافة العامة ؟

إنها تبدأ بالنظافة الخاصة ، أى فى البيت ، فى المدرسة .. أى نظافتك قبل أن تنزل إلى الشارع ، فإذا حدث ذلك أحسست كطفل وكأب أن الشارع امتداد للبيت ، وإن البيت له صاحب والشارع يملكه الجميع ، وأنه لا فرق بين الذى أملكه وبين الذى نملكه .. إننا يجب أن نصون الجميع بنفس الصدق والإخلاص ، وأن البيت إذا كان دليلا علينا ، فإن مصر كلها صورة لنا أمام أنفسنا وأمام غيرنا .. وربما كان إحساسنا بالغير أقوى ، وخوفنا من الفضيحة والعار أقسى من النقد الذاتى .. نحن نهتم بالبيت والأكل والشرب وأدوات الأكل والشرب إذا جاءنا ضيوف .. ونهمل ذلك كله إذا لم يكن هناك آخرون يرون ويتغامزون ويلومون ويعيبون بعد ذلك .. وهذا ما يحدث فى شوارع مصر وأحيائها : إنه الخوف من السائح الأجنبى ، فهل تؤجر مصر مفروشة للأجانب حتى تكون فى نظافة هيلتون وشيراتون وميريديان — عار علينا !

نحن والطوفان

تهمنى جدا قصة الفتاة الأمريكية باتريشيا هيرست ، لا لأنها مليونيرة ولكن لأنها مشكلة حقيقية . وقد تكررت هذه المشكلة أو هذه المأساة ألوف المرات دون أن نلاحظ ذلك . وهى مشكلة لم تجد حلا إلا على شكل مأساة . ومنذ يومين فى القاهرة انتحرت فتاة وانتحرت اختها من بعدها لنفس السبب : قسوة الأب وقسوة الأم . أو عنف الأب وسلبية الأم . فكانت السلبية نوعا آخر من القسوة . أما النتيجة فهى أن الفتاة هربت من الأب ومن الأم إلى عالم آخر بلا آباء ولا أمهات ولا قسوة ولا رحمة : العالم الآخر !

والانتحار ليس حلا .. ولكنه يأس من وجود حل . وأنا أعرف هذا المعنى

جيدا . فقد فكرت فى الانتحار أكثر من مرة . ولم أجد حلا .. أو لم أجد أحدا أقول له حيرتى ودوختى وعذابى مع نفسى ومع الناس . وفى حالة اليأس والقرف وتفاهة الدنيا وتفاهتى أيضا جعلت من نفسى قاضيا ومحاميا ووكيلا للنيابةوجلادا وقررنا جميعا إعدام ذلك الشخص الذى وقف أمامنا : أنا . ولأسباب غريبة لم أتمكن من تنفيذ الحكم . ولكن المشكلة بقيت فى مكانها من نفسى. وهى أن الإنسان عندما لا يجد أحدا أو عندما لا يجد « الأحد » أو الشخص الذى يريد حنانه ، فإنه يترك الدنيا كلها . لا ليبحث عنه ولكن يأسا من البحث عنه والعثور عليه !

والفتاة الأمريكية قالت الكثير فى تفسير انضمامها إلى إحدى العصابات .. أو اضطرارها إلى ذلك .. ثم تبرير ما حدث .. أو تفسير ما حدث .. ولكن الواضح جدا أن الفتاة ليست آسفة على ما فعلت . وإنما هى وجدت فى إزعاج والديها ودهشة الناس . عقابا كافيا لوالديها .. لأن هذه الفتاة أرادت أن تعاقب والديها على إهمالها والانشغال عنها .

وهذه هى مشكلة الجيل . أى كل جيل فى كل عصر .. إنها مشكلة نوح عليه السلام وابنه .. فلما حدث الطوفان ألقى ابنه بنفسه فى الماء ، وقال له أبوه : يا بنى اركب معنا .. فقال له الولد : لن أركب وإنما سأسبح فى الماء حتى أصل إلى الجبل .. أو إلى الشاطئ .. قال أبوه : لا شاطئ اليوم .. تعال معنا !

ولابد أن ابن نوح قد لاحظ اهتمام والده بجمع الحيوانات والنباتات من كل نوع ولون .. لأنه مشغول بأن يحفظ الحياة أو بذور الحياة ليعيد غرسها على الأرض من جديد عندما ينحسر الماء .. وأدرك الابن أن أباه أهمله أو انشغل عنه .. وأن هذه الحيوانات جميعا أهم وأبقى وأنفع منه .. فانتحر الابن .

هل هى عقوبة يستحقها كل أب ؟ فالابن يطلب كل شىء مضافا إليه الحنان .

فإذا أعطاه الحنان طلب كل شيء.. فإذا أعطاه كل شيء والحنان فيجب ألا يشكره على شيء.. لأنه لا شكر على واجب!!

منتهى العقوق أيها الأبناء!

الحب لا يُشترى

شيئان لا يشتريان بالمال: الصحة والحب!

أما ابنة المليونير الصحفي هيرست فقد وجدت المال والصحة. ولا يبقى إلا الحب. ثم وجدت الشاب الذي يحبها. وتركت بيت والدها وعاشت مع الرجل الذي يحبها. وهي قد فعلت ذلك لأنها حرة تفعل ما تشاء ولسبب آخر هام جدا هو أن لديها إحساسا بأن أمها لا تحبها. وأن والدها رجل غني وقد وفر لها كل ما تريد واعتقد أن هذا يكفي.. فليس عنده وقت لكي يراها أو يتحدث إليها.

وفي إحدى المرات سألت أباها: بالضبط ما هي علاقتك بي؟

ولم يجد الأب ما يقوله سوى أن ابنته تداعبه. ولما وجدها جادة في سؤالها طلب إليها أن تنام مبكرا. ولما وجدها متجهمة طلب إليها أن تكف عن قراءة كتب الفلسفة. ولما وجد الحزن عميقا على وجهها طلب إليها أن تترك خطيبها مادامت هذه أفكاره. ولما كان الصمت الحزين العميق هو الحائط العالي الذي وجده أمامه قال لها: اسمعي يا ابنتي.. أنت أحسن حالا مني. فأنا لم أر أمي ولا أبي.. وأنت ترين الاثنين كل يوم. وفي هذا الكفاية!

ولم يكن جوابا شافيا، وإنما كان سما دخل دمها.. أو ميكروبا تسرب إلى قلبها وعقلها. وأحست باتريشيا هيرست أنها غنية جدا. ولكنها يتيمة. بلا أبوين. فأبواها موجودان ولكن ليسا في حياتها..

وذهب الأب إلى الطبيب النفسى يسأله عن « حالة » ابنته . وكان رد الطبيب أن الفتاة تعانى من العزلة النفسية .. وأن أى إنسان يجلس وحده أو يعيش وحده سوف تهبط عليه طيور جارحة تخطفه إلى مكان بعيد .. وليست هذه الطيور سوى الأفكار السوداء أو النزعات الإجرامية أو الانتحارية . وأن الفتاة لديها استعداد عظيم لذلك !

وصدقت نبوءة الطبيب .. وانضمت الفتاة إلى إحدى العصابات .. أو عرفت إحدى العصابات أزمة هذه الفتاة وخطفتها . أو أن خطف الفتاة كان نوعا من توارد الخواطر . فهى قد قررت أن تختفى أو تتوارى أو تعاقب الأبوين على هذا الاهمال .. أو أنها قررت أن توجع قلب الأب الغارق فى الذهب ، أو الأم المدفونة فى الفساتين والحفلات ! .

ولم يفهم الأب إلا أخيرا أن ابنته هذه كانت فى حاجة إلى شىء أكثر من الفلوس أو شىء لا يمكن شراؤه بالفلوس : الحب .. أو الحنان . وأن الحب الذى نجده فى الخدم والحاشية ليس هو الحب . وإنما هو نوع من الحب الصناعى .. مثل « اللبن الصناعى » .

والطب الحديث ينصح الأم أن ترضع طفلها من لبنها ، وليس من « اللبن الصناعى » .. فأطفال اللبن الصناعى سوف يصابون بأمراض كثيرة .. وكذلك أطفال « الحب الصناعى » و « الحنان الزائف » .. وليست هذه الفتاة المليونيرة إلا نموذجا صارخا لذلك ! .

كتب للمؤلف

١ – دراسات :

١ – وحدى مع الآخرين	الطبعة الثانية
٢ – عذاب كل يوم	الطبعة الثانية
٣ – طريق العذاب	الطبعة الرابعة
٤ – مع الآخرين	الطبعة الثالثة
٥ – الوجودية	الطبعة الثانية
٦ – يسقط الحائط الرابع	الطبعة الرابعة
٧ – كرسى على الشمال	الطبعة الثانية
٨ – ساعات بلا عقارب	الطبعة الثالثة
٩ – قالوا	الطبعة الثالثة
١٠ – وداعاً أيها الملل	الطبعة الرابعة
١١ – ألوان من الحب	الطبعة الثالثة
١٢ – مدرسة الحب	الطبعة الثالثة
١٣ – من نفسى	الطبعة الثالثة
١٤ – شارع التنهدات	....
١٥ – الخبز والقبلات	الطبعة الثالثة

١٦ – الحائط والدموع — الطبعة الخامسة
١٧ – الذين هبطوا من السماء — الطبعة السادسة
١٨ – يوم بيوم — الطبعة الثالثة
١٩ – يا من كنت حبيبي — الطبعة الثالثة
٢٠ – من أول نظرة — الطبعة الثالثة
٢١ – وكانت الصحة هي الثمن — الطبعة الثانية
٢٢ – أرواح وأشباح — الطبعة الثالثة
٢٣ – الذين عادوا إلى السماء — الطبعة الثانية
٢٤ – قلوب صغيرة — الطبعة الثالثة
٢٥ – شيء من الفكر — الطبعة الثالثة
٢٦ – كانت لنا أيام (في صالون العقاد)
٢٧ – لو كنت أيوب (اقرأ) — الطبعة الأولى
٢٨ – مقالات في السياسة (جزءان)........

٢ – قصص :

٢٩ – بقايا كل شيء — الطبعة الثالثة
٣٠ – عزيزي فلان — الطبعة الثالثة
٣١ – هي . . وغيرها — الطبعة الثالثة

٣ – رحلات :

٣٢ – حول العالم فى ٢٠٠ يوم	الطبعة الثالثة عشرة
٣٣ – اليمن .. ذلك المجهول	الطبعة الثانية
٣٤ – بلاد الله .. خلق الله	الطبعة الثالثة
٣٥ – أطيب تحياتى من موسكو	الطبعة الثانية
٣٦ – أعجب الرحلات فى التاريخ	الطبعة الثالثة
٣٧ – غريب فى بلاد غريبة	الطبعة الرابعة
٣٨ – لعنة الفراعنة	الطبعة الثانية
٣٩ – أوراق على شجر	الطبعة الثانية

٤ – مسرحيات :

٤٠ – الأحياء المجاورة !

٤١ – حلمك .. يا شيخ علام

٤٢ – مين قتل مين ؟

٤٣ – جمعية كل واشكر !

٤٤ – كلام لك يا جارة

٥ – مترجمات :

٤٥ – الإمبراطور جونز أونيل

رقم الإيداع	١٩٨٢/١٧٦٥
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧–٧٣٥٨–٢٢–٩

١/٨١/٣٦٤
طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

